
كريستا فولف
نحن نعرف
ما سيأتي
رواية
«تحفة أدبية»
«بادنر تاجبلات»



لمزيـــــد مــن المعلومــات عــن الكرمــة : /facebook.com
alkarmabooks

العنوان الأصلي : Kein Ort. Nirgends

كريستا فولف، 1979

نشر هذا الكتاب بدعم كريم للترجمة من معهد جوته، الممول من
وزارة الخارجية الألمانية



فولف، كريستا، 1929-2011

نحن نعرف ما سيأتي: رواية / كريستا فولف؛ ترجمها من الألمانية

صلاح هلال - القاهرة: الكرمة للنشر، 2020 .

تدمك : 9789776743243

1- القصص الألمانية .

أ-هلال، صلاح (مترجم).

ب-العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 13070 / 2020

1 3 5 7 9 10 8 6 4 2

لوحة الغلاف: «زوجان عند الشباك» لـ«جيورج فريدريش كيرستينج»، 1815 تقريبًا

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد



«أحمل قلبًا معي، مثلما تحمل دولة شمالية نواة فاكهة استوائية .
إنه يحاول ويحاول، ولكنه لا يستطيع أن ينضج ».

«كلايست »

«هذا هو السبب الذي يجعلني أتصور، كما لو كنت أرى نفسي أرقد في نعشٍ وكلتا ذاتَيَّ تحدقان الواحدة في الأخرى بدهشة ».

«جوندروده »

المسار السيئ الذي ينزلق فيه الزمن، هاربًا بعيدًا عنا .

أنتم السالفون، دماء في الحذاء. نظرات لا تصدر من أي عين، كلمات لا تخرج من أي فم. أشكال لا أجساد لها. مدفوعة إلى الأسفل في اتجاه السماء، منفصلة في قبور بعيدة، بُعثت من بين الأموات، ما زالت تسامح المذنبين منا، يا للصبر الملائكي الحزين .

ونحن، ما زلنا نشتهي طعم رماد الكلمات. ولم نصمت بعد، وكان الصمت ليليق بنا .

قل رجاءً، شكرًا .

رجاءً. شكرًا .

ضحكات عمرها مئات السنين. الصدى، فظيع، وقد تكسر مرارًا. والشك أن لا شيء آتٍ أكثر من هذا الصدى. لكن وحدها العظمة تبرر انتهاك القانون وتُصالِح المذنب مع نفسه .

أحدهما، «كلايست»، وقد ابتلي بذلك السمع المرهف، يهرب تحت ذرائع لا يُسمح له بفهمها. يرسم خريطة أوروبا الممزقة بمساره الغريب، وعلى ما يبدو من دون هدف. حيث لا أكون، تكون السعادة .

المرأة، «جوندروده»، محصورة في الدائرة الضيقة، عميقة الفكر، حادة البصيرة، غير آبهة بزوال كل شيء، عازمة على عيش

الخلود، وعلى التضحية بما هو مرئي من أجل ما هو غير مرئي .

أن يكونا قد التقيا: فتلك أسطورة تمنيناها. مدينة فينكل على نهر الراين، رأيناها. مكان مناسب .

يونيو 1804 .

من يتكلم؟

مفاصل يد بيضاء، يدان تؤلمان، إذن هما يداي. هكذا أعرفكما وآمركما أن تتركا ما تتشبثان به. ما هو؟ خشب مقوس بشكل جميل، ظهر مقعد. غطاء المقعد متلألئ، بلون غير واضح، أزرق فضي. فسيفساء الباركيه اللامع الذي أقف عليه. أناس منتشرون بحرية في جميع أنحاء الغرفة، مثل المقاعد، في ترتيب لطيف. إنهم ماهرون في ذلك، وعلى المرء أن يترك الأمر لهم. على خلاف الأمر في بروسيا. الذوق، الذوق. يسمونها ثقافة، وأنا أسميها رفاهة. أن تبقى مهذبًا وصامتًا، ذلك الوقت القصير .

يفكر «كلايست»: في هذا الشهر، هذا أمر مفروغ منه، أريد أن أعود. لكن في صمت. كيف هو مزاجي، أمر لا يعني أحدًا من الناس، وأقلهم أنا. هي نكتة كنت لأفتخر بها لو أنها خرجت مني. عندما تسنح الفرصة أريد أن أُفزع بها المستشار المسكين .

أتبعه مثل الحمَل، فالاعتراض هو علامة على المرض. قادر على السفر؟ بكل تأكيد، يجب أن يتحقق مراد الدكتور «فيديكيند». أقسم بالرب وبالشيطان إني صحيح وبخير. بصحة جيدة مثل المجنون عند الصخرة، «بروميثيوس». هو يعيش ألف سنة وأكثر. يُلح عليّ أن أسأل الطبيب أين يوجد ذلك العضو الذي ينمو من جديد كل يوم، وإذا كان بمقدوره استئصاله مني، لإثارة غضب النسور. لا رفقًا متهورًا للكلفة مع العالم الإلهي. أن تكون فانيًا، فهذه هي الرغبة الورعة .

تهريج. لا يعرف أولئك الأشخاص هنا، في محيطهم المُشرِق، شيئًا عنه. عن أني لا أستطيع الاختلاط معهم. كانت الدعوة لتناول الشاي والتسامر. الجدار من ورائي» حسنًا. هذا الضوء الساطع

إلى اليسار صف من النوافذ، منظر طبيعي بعيد. عدد قليل من المنازل القروية في المقدمة، في شارع منحدر. منطقة مروج مليئة بالأشجار. ثم نهر الراين، النهر الكسول. وفي الأفق البعيد، سلسلة تلال مسطحة ومتأرجحة ذات معالم محددة. فوقها زرقة مجهولة، السماء .

الآنسة الواقفة عند النافذة تحجب عن ناظريّ منظر الطبيعة .

نعم: الصحة المطلقة للطبيعة. الآنسة «جوندروده» شديدة الحساسية للضوء، فتغطي عينيها بيديها، وتحتمي وراء الستار. «قيِّمٌ هو الألم المتمثل في أن يمس المرءُ قلوبَ الناس، وأن يصبح صديقكِ المؤتمن، أيتها الطبيعة!». لأيام كاملة لا تخرج هذه السطور من ذهني. الشاعر المجنون. تسعى للحصول على المواساة من مجنون - كما لو كنتُ لا أعرف ما يعنيه ذلك. وهأنذا أفكر: كان عليّ أن أبقى في الدير، في الغرفة الخضراء الباهتة، على السرير الضيق، أستبق الصداع، بدلًا من أن آتي من فرانكفورت في سيارة ترتج بطريقة مزعجة، وأبقى صامتًا، رافضًا أن أعكر صفو الآخرين. يتركونني وشأني الآن، يتحملون ابتعادي على أنه نزوة، ولا يطلبون مني أكثر من أن أُظهِر تقلباتي المزاجية من وقت إلى آخر. ولكني أفتقد الرغبة تمامًا في التظاهر والمجاملة. لا أشعر بأي ميل لأي شيء مما يدعيه العالم. مطالبه وقوانينه وأغراضه تبدو لي كلها خاطئة .

الضغط على الصدر، منذ الصباح بالفعل، منذ ذلك الحلم الذي عاد ليظهر الآن. مشت وسط مجموعة من الأشخاص في أرض قاحلة وناعمة، غريبة وفي الوقت نفسه مألوفة، في فستانها الأبيض الفضفاض، بين «سافينيي» و«بتينه». فجأة رفع «سافينيي» قوسًا إلى خده، وشدها، وصوب سهمًا كليلًا. عندها رأتها: الغزالة على حافة الغابة. صرخة الفزع، التي سمعت نفسها تطلقها، جاءت كالمعتاد متأخرة وقد سبقها السهم. سقطت الغزالة، وقد أصيبت في عنقها. «بتينه»، إلى جانبها، والتي لم تحول عينيها عنها، كانت أول من أدرك الكارثة. صاحت شاكية :

. «لينا »!

عرفت «جوندروده» أن الجرح في عنقها، من دون أن يكون عليها أن تتحسسه. تحول منديل «بتينه» الأبيض إلى اللون الأحمر، واندهشت «جوندروده» من قوة الألوان في الحلم. كان سيبدو لها طبيعيًّا جدًّا أن تنزف حتى الموت. عندها برزت أمامهم من الأرض خيمة ذات سقف منخفض، انحنى تحتها كائن قزم مُشعر، يقلب في قِدر بها مرق مقزز ينبعث منها البخار. وغاصت يدٌ الوحيدة التي عرفت ماذا تفعل. بلا خوف في المرق، الذي لم يكن حارقًا بل مهدئًا، ومسحت على الجرح في عنقها. أثر السحر فورًا: شعرت بالجرح يلتئم، ويختفي. عندما استيقظت تحسست المكان: بشرة ناعمة بلا جرح. هذا ما يمكن أن أحصل عليه منه: ظلال حلم. منعت نفسها من البكاء، ونسيت الحلم والسبب في حزنها .

والآن أصبحت ترى: كانت تلك يد «سافينيي ».

لكن لماذا على العنق؟ ليس ذلك ما اتُّفق عليه. هي تعرف الموضع تحت الصدر حيث يجب أن تُغمد الخنجر، وقد أشار لها إليه جراح بضغطة من إصبعه حين سألته مازحةً. منذ ذلك الحين، عندما تركز تشعر بتلك الضغطة وتهدأ على الفور. سيكون الأمر سهلًا وأكيدًا، سيتعين عليها فقط أن تتأكد من وجود السلاح دائمًا معها. ما يفكر فيه المرء طويلًا وكثيرًا بقدر كافٍ يفقد تمامًا قدرته على الإفزاع. الأفكار تبلى مثل العملات التي تنتقل من يد إلى يد، أو مثل التصورات التي لا يكف المرء عن سوقها أمام عينه الداخلية. في كل مكان، يمكنها أن ترى، من دون أن ترتعش، جثتها ترقد، حتى هناك بالأسفل عند النهر، على اللسان بين المروج التي تقع عليها عيناها. ولم يبقَ لها أن تتمنى إلا أن يجد الجثة شخص غريب يتحلى برباطة الجأش وينسى بسرعة. إنها تعرف نفسها، وتعرف البشر، وهي مستعدة أن تُنسى. تتجنب الإيماءات الملحوظة ما دام ذلك ممكنًا. يعتريها سوء الحظ أن تتسم بالحماسة والفخر، أي أن يُساء فهمها. لذلك تتحفظ وتقيد نفسها بقيود تنغرز في لحمها. لا بأس بذلك، يستطيع المرء أن

يعيش هكذا. سيصبح الأمر خطيرًا إن سمحت لنفسها بأن تخفف قبضة القيود وتنطلق، وإن اصطدمت عندها، في ذروة انطلاقها، بتلك المقاومة التي يسميها الآخرون «الواقع»، والتي هي غير قادرة على تكوين المفهوم الصحيح عنها، كما سيتهمها الآخرون .

يا لها من ميزة مهمة، أن الأفكار لا تظهر في صورة كتابة على جباهنا! لولا ذلك لتحول بسهولة أي لقاء، حتى لو كان بسيطًا مثل هذا، إلى تجمع قتلة. أو لتعلمنا أن نرتفع عن أنفسنا وننظر بلا كراهية إلى المرآة المشوّهة التي يمثلها الآخرون بالنسبة إلينا؛ ثم، ومن دون رغبة منا، أن نحطم المرايا. ولكننا، كما هي تعلم، لم نُصنع من أجل القيام بذلك .

هل يجب على المرأة أن تنظر هكذا؟

ليس الشخص مُريبًا بالنسبة إلى «كلايست». لم تمتلك آنساته من براندنبورج تلك النظرة، ولا حتى نساء درسدن، مهما بدّون له لطيفات؛ ولا الفتيات السويسريات . بقدر ما يُسمح له بتعميم ما يعرفه عن إحداهنّ على الأخريات. والباريسيات اللاتي استثنتهن الطبيعة ...

هل هذه المرأة جميلة؟

ترتسم حولها دائرة غير مرئية، يهاب المرء أن يتجاوزها . يبدو ممنوعًا البوح لها بأي مجاملة. تشع منها الكرامة، وأيضًا شيء من الصد، يتعارضان مع شبابها، كما تتعارض عيناها الزرقاوان مع شعرها الأسود اللامع. في المظهر تزداد جمالًا، هذا صحيح، في الحركة، وفي تعبيرات الوجه. ولكن هل يحق له الحكم على جمال المرأة؟ إذا صح ما كان يدعيه «فيلاند» الشاب الساحر في كثير من الأحيان - أن النساء وحدهن يحددن قيمتهن فيما بينهن، ويقمن باستفزاز أحكام الرجال عليهن فقط إرضاء لغرورهن - فإن الآنسة عند النافذة تحتل مكانًا استثنائيًا بين الشابات الساحرات الأخريات، لا ينازعها فيه أحد . وبالتأكيد ليست «بتينه»، شقيقة «كليمنس برنتانو» الشهير، الذي انسحب مباشرة بعد إلقاء التحية، لحسرة «كلايست»، إلى طاولة صغيرة مع زوجته الشابة، «صوفى

ميرو»، وزوجين شابين آخرين، آل «إيزنبيك ». فكرة غريبة بدا أن «بتينه» لا تستسيغها إطلاقًا، أما هي، التي ما زالت طفلة تقريبًا، جامحة ولا يمكن التنبؤ بأفعالها كما يقول عنها أهل النميمة، فبقيت على الأريكة مع الآنستين الشابتين «سيرفيير»، ولكن عينيها تخونانها: إنها تود أن تكون عند النافذة، مع صديقتها، ولكنها لا تجرؤ على قطع سهوها .

لا بد أن الآنسة، التي نسي «كلايست» اسمها بعد تعريف «فيديكيند» العابر، لا تعيش في أسعد الظروف. يذكر «كلايست» الفتيات غير المتزوجات المنحدرات من عائلات نبيلة معدمة في الأقاليم النائية، وتأنقهن البائس عندما يخرجن إلى حفل جماعي، وأعينهن المتلهفة الجائعة، وملامحهن الحادة من سن مبكرة . «أولريكه»، أخته. فكرة غير مرحب بها. «أولريكه»، هذا أمر مختلف. يسأل الصوتُ الثاني في داخله، الصوت الذي تمرس بقوة على قمعه: لماذا؟ لقد التهم الدرس الذي تلقاه. لا يتعلم المرء، عندما يتعلق الأمر بالحياة، إلا في حالة الخوف من الموت. في قبضة قوى لا تدع مجالًا للشك في أنها قادرة على تدميرنا، لأن شيئًا في أنفسنا، لا نريد معرفته، يقاومها. هذا الانهيار في نوفمبر. الشتاء الرهيب. هذه المونولوجات المدوية التي لا تنقطع في رأسه المسكين. إنه يعرف ما فيه خلاصه: إسكات ذلك الصوت الذي يهيج ويسخر ويدفع به إلى مناطق الجراح. وإذا أسكته؟ سيكون ذلك نوعًا آخر من الموت. لكن من أين يأتي اليقين الداخلي بأن مهمته هي أن ينتزع من تلك القوى، التي غُسلت بكل أنواع المياه وحتى بالدم، اسمها؟ ومن أين، في الوقت نفسه، يأتي إحساسه بالعجز والشك المتوغل بداخله في مهمته؟ معركة غير متكافئة .

يُصدر «كلايست» صوتًا قد يجعل المرء يرتجف لو استطاع أن يعتبره نوعًا من الضحك .

يمس شخص ما ذراعه. «فيديكيند»، الطبيب، في ممارسة عمله :

.هل يُسمح بمعرفة ما الذي يُبعدك عنا؟

إنه ليس سيد أفكاره. عليه أن يُكرِه نفسه، وسوف يُعتبر أنه شُفي إذا أتقن ذلك الفن. ولكن كيف يمكن أن يكون الشفاء من نصيب من يُغالب القانون قبل أن يخضع له؟ يخضع له حتى التراب: للقانون المجنون، غير الساري .

ولا أي قاضٍ. ولا أي قاضٍ .

«كلايست»، في ضيقه، يهز رأسه بعنف. يسمع الطبيب يقول :

. «كلايست »!

ـ لا شيء، لم يكن شيئًا. كان عليَّ أن أفكر أني في هذا العام سأصبح في السابعة والعشرين .

يقول «فيديكيند »:

. بالتأكيد. وهل لهذا معنى؟

. سؤال ممتاز. الجواب هو: لا .

عملُ خيرٍ قاتلٌ: أن يعني المرء ما يقول، وأن يمزقه رأيه. ودائمًا الأصدقاء الذين يصدقونك في أقل قدر عندما تكون أقرب ما يكون من الحقيقة. كما كانت الحال قبل فترة طويلة، في الخريف الماضي، «بفول» في باريس، الذي تشارك معه المسكن، ولكن لم يشاركه يأسه .

. «بفول»، لقد فشلتُ !

كانت تلك الحقيقة، يعلم الله ذلك، ولكن الصديق، الذي كان أكثر من عرفه، والذي كان قد رافقه ـ يمكن للمرء أن يقول أيضًا: قد تبعه ـ والذي شهد معركته اليائسة من أجل «جويسكارد» اللعين، هذا الصديق أنكر عليه ما استنتجه من تلك الحقيقة ورفض القيام، من أجله، بالعمل الصالح المتمثل في أن يترك الأرض معه إلى الأبد: هو، «بفول»، ليس مستعدًّا بعد للانتقال إلى العالم الآخر، لكنه سيُعلم صديقه في الوقت المناسب ...

يسأل «كلايست»: «نحن نعرف ما سيأتي»

. السيد مستشار البلاط، هل تعرف «هاملت»؟

يقول المستشار :

. بالتأكيد (وهي كلمته المفضلة). في نسختها الأصلية وفي ترجمة «شليجل ».

رجل مثقف .

يقول «كلايست» إنه قد خطر له الآن الشجار الذي جعله آنذاك، في باريس، يفترق عن صديقه «بفول ». هل ما زال يذكر؟ يومئ «فيديكيند» برأسه. وقع هذا الشجار بسبب المونولوج :

إذ من تراه قادرًا على تحمل السياط والإذلال
من يد الزمان

في ظلم كل ظالم وكل من يصعرون الخد
في صلافة ...(*)

المستشار فعلًا على دراية جيدة. لكنه لا يستطيع إلا أن يعبر عن دهشــته مــن أن أنـاسًا كبارًا ومتحضـرين، وأصـدقاء، يمكـن أن يختلفـوا ويتشـاجروا حـول بعـض أبيـات الشـعر . ألا يعني ذلك المبالغـة فـي احتـرام الأدب؟ نعم، أليس من غير المناسب على الإطلاق كسر الجدار الفاصل بين خيالات الأدباء ووقائع العالم؟

هكذا فكر أيضًا «بفول». وكانت القطيعة .

. ميلك الدائم نحو المطلق، يا «كلايست»... ربما كان «شيكسبير» الذي تتحدث عنه أطرف الرجال، ألا تظن ذلك؟

تجول في خاطر «كلايست» فكرة أن الطبيب يراه ممثلًا كوميديًّا يلعب بتنويعات، ومنها المأساوي. إذا كان ذلك صحيحًا فهو لا يريد أن يعرفه. إنه يعتمد على حكم العالم عليه ولا يمكنه تغيير ذلك .

آخرون يريدون أن يعرفوا تفكيرًا غير دموي. الانسجام والاعتدال

والطراوة. «كلايست»، مهما بذل من جهد، لا يتوغل إلى الحياة الداخلية للكلمات. أتحرك، والشوق يفترسني، في انعكاساتها .

. جاهزة للطباعة .

هكذا يقول لـ«فيديكيند»، الذي ينتظر. ويتابع :

. جمل جاهزة للطباعة، السيد المستشار، إنه عبء. يشحذها كل واحد لتكون مقصلةً لسابقيه .

يقول «فيديكيند »:

. «كلايست»، إذا كنت تريد أن تصدقني: إنه ليس من الجيد أن يغوص المرء في أعماق ذاته أكثر مما ينبغي .

شكرًا للنية الحسنة. هل تدهورتُ بشدة إلى درجة أحتاج فيها إلى المواساة في قبول الحكم المُخفف؟ الآن عليَّ أن أنتبه بشدة كي لا أضغط رأسي بين يديَّ أمام كل هؤلاء الناس. يا لها من قاعة جميلة. يا لهم من أشخاص لطفاء. كيف يصنعون شخصيات غريبة، تبعًا لقواعد لن أتعلمها أو أفهمها أبدًا. يا إلهي .

. السيد «فون كلايست ».

. آنستي .

ما الذي صبغ خديها؟ آه، بالفعل: يوجد ضيوف جدد تريد تقديمه لهم. حسنًا: السيد «فون سافينيي» من ماربورج، عالم قانون، وزوجته «جوندا » ، المولودة «برنتانو». تبدو العائلة مزدهرة. الرجل، «سافينيي»، يكبره قليلًا، ولكنه، كما يبدو، يتمتع بثقة في النفس ستظل بعيدة عن متناوله. كيف يمسك بيد الآنسة، كيف يستطيع أن ينظر إليها ويتحدث إليها وهو يحافظ على النغمة بين الترحيب والسؤال والطلب : «جوندرودشن»، «جوندروده الصغيرة ».

ها هو ذا يعرف اسمها. لم يسمع به قطُّ. من دون أن توليه أي اهتمام، تذهب مع الوافدَين الجديدَين، اللذين انضمت إليهما، نحو

الآخرين. ينغلق الجزء الذي انفتح للحظة من الستارة، كما لو أراد بذلك السماح له بالدخول إلى عالمها. لم تقترب منه الآنسة «جوندروده» تلك، إلا لتبتعد من جديد. ليس من العدل أن يُحملها مسؤولية خيبة أمله. حسنًا، يريد أن يكون غير عادل .

يقول أحدهم :

. النور! «كارولينه»، يجب أن تريه !

«كليمنس». كما أعرفه. إنه لا يريد أن يتحمل قربي من «سافينيي». إنه يوجهني نحو النافذة، كما لو كنت ملكًا له، ويخبرني بكلمة عن الإضاءة، التي أعرف أنها لا تُضاهَى في هذه الساعة، عندما تكون الشمس في زاوية معينة من المنظر الطبيعي ومن المياه. كما لو أن أي ظاهرة للطبيعة تحتاج إلى مدحنا، أو اهتمامنا، أو حتى وجودنا .

. أنتِ صارمة معي، يا «كارولينه ».

كبرياء مجروحة، الشيء نفسه دائمًا. عندما سحبني «كليمنس» بعيدًا، أشار لي «سافينيي» بتلك الإشارة بإصبعه. لقد حضر. يعلم أنني أنتظر، وهو معتمد على أنه يمكنني إخفاء ذلك. يدرك أنني مخلصة عندما أحب، ومتفانية؛ ويستغل هذا الأمر، ولا أستطيع إلا أن أحبه أكثر لذلك. وهو يعتمد أيضًا على ذلك. ويستمر الأمر بهذا الشكل .

دخول «سافينيي » أعطى «جوندروده» دقيقة واحدة من نسيان الذات السعيد، وسرعة في دقات القلب، وحركات لاإرادية لا تستطيع التحكم بها، في حين أنها تعرف كيف تتحكم بكل دقة قلب وكل اندفاع ما دامت واعيةً بنفسها. كانت دائمًا الأَسَن، الداعمة للأم الوحيدة، غير المتأنية، والحمقاء بعض الشيء، المربية للأخوات الأصغر سنًا؛ دائمًا عاقلة، دائمًا ثاقبة النظر، مشدودة في ظل التباين بين طبيعتها السامية وأشد الظروف ضيقًا. الليالي الأولى في الدير، في سن التاسعة عشرة، في الغرفة الصغيرة، على السرير الصلب الضيق، والنوافذ مفتوحة يدخل

منها، بعد أن تصمت آخر الطيور، سكونٌ يزداد كثافة، وتهديدًا، وصرامة، ويبدو قبل الفجر كأنه يملأ الكون كله ويخنقه : لا تتحدث عن ذلك الأمر أبدًا، ولا تنساه. حتى «بتينه»، بقدر ما هي طيبة معها، لن يجول حتى بخاطرها حجم الألم والاستسلام اللذَيْن تحبسهما صديقتها بقوة في نفسها .

يحب «كليمنس» سماع نفسه يتحدث .

«كلايست» يشاهد .

تتفكك المجموعة التي انفصلت عنها الآنسة «جوندروده» تلك، وكأنها لم تعد تملك أي تماسك، وينضم أعضاؤها إلى مجموعات أخرى. سيدان أو ثلاثة يجتمعون حول «بتينه » عند «الكلافيكورد». تعزف نغمات حُرة لم تُكتب في أي نوتة موسيقية. يسمعها تقول إنها لا تستطيع العزف من النوتة، وتضحك، فينتابه الشك: هل يجب أن يغريه مكرُها، أم يجب عليه أن يتغاضى عنه، لأنه يبدو متوافقًا مع شخصيتها؟ من دون نكران، يفضل النساء اللواتي يبقين داخل الإطار، مثل «جوندا» هذه، أو «ليزيته» هذه، زوجتي «سافينيي » و«إيزنبيك» الجالستين على الأريكة تحت اللوحة الزيتية الكبيرة، التي نجحت، من خلال استخدامٍ متأنٍّ لكل درجات اللون الأخضر، في إضفاء هيكلية وعمق وفرح إلى منظر طبيعي بسيط بشكل مدهش . فكرة ظريفة: لو كان رسام ثانٍ حاضرًا، لأمكنه الوقوف وتصوير لوحة أخرى من هذا الموضوع الجديد. لوحة الرسام الأول، والأريكة وعليها الشابتان المختلفتان للغاية. لوحة مناسبة لتعلَّق فوق خزانة الأدراج المائلة برقة على الجانب الآخر الضيق من الغرفة، ولتكوِّن مجموعة جديدة، تشكِّل بدورها موضوعًا يستحق التصوير. ويستمر ذلك على هذا النحو، ويؤدي أيضًا إلى تقدم محدد في فن التصوير .

يريد «فيديكيند» معرفة ما إذا كان قد وعده بأكثر مما وجد .

ماذا يقصد؟ المنظر الطبيعي؟ الناس؟ يقول «كلايست» بحذر :

ـ كنت أعرف نهر الراين .

ـ بالتأكيد: كجندي. هذا شيء آخر. لا أحد يعرف منطقة تجول فيها بالزي الرسمي فقط .

على «كلايست» أن يوافقه الرأي. يخجل من أن يتحدث عن ذلك الوقت مع ابن مدينة ماينتس، فقد حاصرها وهو ابن خمسة عشر عامًا عندما كان أصغر ضباط وحدته تحت راية ملك بروسيا. لقد مرت إحدى عشرة سنة وكان الأمر في حياة أخرى. كانت الذكرى لتختفي تمامًا لو لم يثبتها بكلمات يستطيع أن يستدعي الآن بمساعدتها، كلما شاء، تلك التجربة إلى ذاكرته: كيف صعد في مواجهة رياح المساء، وفي مواجهة نهر الراين، فدوت من حوله موجات الهواء والمياه في وقت واحد، وجعلته يسمع مقطوعة موسيقية بطيئة متلاشية، مع كل جُملها والتناغم المصاحب لها .

هكذا وصفها ـ بإخلاص، كما يأمل ـ لـ«فيلهلمينه فون تسنجه» بعد ذلك بوقت طويل في رسالة، وكان يدرك أن إغواء الكلمات يدفعه أكثر بكثير من الحاجة إلى مشاركة إنسان معين شيئًا ما عن نفسه، إذ هو يستخدم العبارات نفسها في رسائل إلى أشخاص مختلفين من دون أي تردد، بحيث يبقى مدينًا لكل منهم ـ هذا ما يشعر به فعلًا ـ بأقصى درجات الخصوصية. حتى عندما اتهم عروسه بالافتقار إلى الحب، وجَّه كل شيء: الشكاوى، والاتهامات، وكل خط من ريشته، إلى نفسه. بما أنه لم يقدر على تغيير الأمر، كان عليه أن يتحمله، وإن تطلب ذلك كثيرًا منه. بإمكانه تصور ما يقوله مجتمع فرانكفورت عنه، في أدق العبارات. يعد العروس ثم يتخلى عنها. لماذا يؤثر فيه ذلك؟ لماذا هذا الرعب، الاستسلام لحكمهم؟ لماذا، والبُعد لم يُفلح، ما زال الإغراء قائمًا: الموت أفضل من ذلك .

يا للأسف: لأن اتهامهم يلتقي واتهامه لنفسه. الفجور! إنهم لا يعرفون ما يكون ذلك. هو يعرف. أن تظل مدينًا للحياة بما هي تطلبه، وللأحياء بما يجب عليهم أن يطلبوه؛ أن تشعر بالحياة الحقيقية فقط عندما تكتب... نصف السنة السيئ ذلك، الذي

قضاه في منزل «فيديكيند»، بمعنى سري كانت فترة نقاهة لا توصف بالنسبة إليه: منعته حالته حتى من التفكير في الكتابة. بالقرب من الموت تختفي تلك الرغبة الضاغطة. أنت تعيش لكي تعيش. كيف التعبير عن ذلك؟

يجب أن تفكر في شيء آخر.

يعرف المستشار «فيديكيند» هذا: أنه عندما يغوص مريضه في ذاته، يكون الوقت قد حان لصرف انتباهه. إنه يريد أن يسمع شيئًا عن المجتمع.

آه، المجتمع. لطيف في الواقع، أليس كذلك؟ لطيف فعلًا. الأمر الوحيد المحير له: أنه لن يعرف، إذا وصل الأمر إلى ذلك، بأي لقب يُحدث تلك المرأة هناك.

. عفوًا؟

فقط لا تُظهر أي حيرة، فسوف يحمي «فيديكيند» نفسه. يتعلق الأمر بـ«جوندروده»، التي يبدو أنها تشغل «كلايست». يمكن مساعدة هذا الرجل. بما أنها . تلك التي تميزت كشاعرة، حتى ولو اشتهرت باسم آخر . غير متزوجة، ونبيلة، لذلك فلعل التحدث إليها بالطريقة الصحيحة سيكون بكلمة «آنسة»، وإذا لزم الأمر «دوموازيل ».

ومع ذلك. سيشعر بالإحراج، ويصعب عليه أن يقول لماذا. كلمة «آنسة» تبدو له غير مناسبة. لا يستطيع صرف النظر عن الشيء الذي لا يجد له الكلمة المناسبة. وبطبيعة الحال تنادي «بتينه» «لينا»، بقدر ما هو مقبول، لتنضم إليها هناك . «لينا» التي تستمع بانتباه، ولكن من دون الاهتمام المناسب، إلى «كليمنس»، وهو يقف بجانبها في وضعية المتوسل. تسميها الفتيات الأخريات «كارولينه»: حتى ذلك لن يكون مسموحًا له به؛ ولا يُسمح له بالأحرى إظهار الحنان الذي يظهره «سافيني»، والذي بدا أنه يغمر «جوندروده» بسعادة. «جوندرودشن ».

كيف تقف هناك من دون أن تفرض نفسها، ولا أن تنأى بنفسها

بوضوح. «سيدة». «فتاة». «أنثى». «امرأة». كل التسميات تنزلق بعيدًا عنها. «عذراء»: سخيفة، بل مهينة، أريد أن أفكر فيما بعد لماذا. «فتيَّة». فكرة غريبة، تخلٍّ عنها .

يقمع «كلايست» الكلمة التي يبدو أنها تناسبه. لا يسبر غور مقاومة ما هو خنثوي. إنها تكتب الشعر؟ أمر فادح. هل تحتاج ذلك؟ ألا تعرف أي شيء أفضل لطرد مللها؟

تشعر «جوندروده» بالنظرة بين شفرات كتفيها، وتنفضها عن نفسها. الغريب الذي أحضره «فيديكيند» يقف متسمرًا في المكان نفسه، وحده. يجب أن يعتني به شخص ما. لماذا «ميرتن»، وهو عدا ذلك مضيف لا غبار عليه، يفشل في واجباته؟ يقف هناك ويصفق لـ«بتينه » ، ولا يحول عينيه عنها، يترك نفسه ينجرف وراءها، كما لو لم يكن في منتصف الأربعينيات ورجل أعمال ناجحًا وهي شيء صغير بالكاد في العشرين، الأحمق. لو يعرف كيف ستسخر منه بعد ذلك معي، وتنكر تحفظاتي، وترفض أي مسؤولية: ستقول إن كل شخص يجعل من نفسه مهرجًا بطريقته الخاصة، وإنها تفعل ذلك أيضًا. وستكون محقة. ماذا يعنيني، على أي حال، من ضيف غريب في منزل غريب؟ ربما ستكون هناك فرصة لاحقًا لإعلام «كلايست» هذا أنني قرأت مسرحيته. أود أن أرى المؤلف الذي لا يتحسن مزاجه على الفور عندما يعلن أحدهم أمام الجميع أنه قارئ له .

ليست مضطرة إلى أن تخبره بأن «ميرتن» هو الذي أعطاها المسرحية، وكان بالمناسبة يشعر بالخيبة، لأنه أملَ من العنوان، «عائلة شروفنشتاين»، أن تكون واحدة من المسرحيات المعتادة عن الفرسان؛ ولا أنها قرأتها لأن الشائعات الغريبة انتشرت من ماينتز عن الشاب الذي اختبأ لدى «فيديكيند» طوال الشتاء بسبب حالته النفسية السيئة. لكن هذا النوع من الوجوه الطفولية لا تتوقع منها العواصف الروحية، ولا حتى الجرائم الوحشية، التي تملأ مسرحيته. فهو لا يزال صغيرًا جدًّا .

يجب أن تبتسم، فهي نفسها أصغر منه .

أصبحت الشمس الآن تقف في مستوى النوافذ الأربع، المفتوحة كلها إلى الجنوب الغربي. ينسم إلى الداخل هواء خفيف، لدرجة أن «جوندروده» بالكاد تتنفسه. في بعض الأحيان، عندما ترقد في فراشها ولا تجد ما يكفي من الهواء، تفكر في أنها تحتاج ضعف كمية الهواء التي يتنفسها الأشخاص الآخرون، كأن جسدها يستخدم مخزونًا لأغراض سرية .

تدق ساعة حائط ثلاث مرات، جلية ومتقطعة مثل آلة الهاربسكورد. لا يوجد داعٍ لتصبح فجأة كئيبة بهذا الشكل. هي هنا منذ نصف ساعة فقط، وبالفعل تود المغادرة. تشعر بازدياد البرودة التي تتبع عادة هذا الإكراه. تريد أن تتخلص من «كليمنس»، فهو يضايقها. هو لا يشعر بما يجب عليه أن يسكت عنه، وهي متحفظة تجاهه لاعتبارات قديمة، وغير قادرة على أن تنبش في ذلك الحادث الذي وقع قبل ثلاث سنوات، لذلك عليها أن تتحمله. تشعر ببشرة وجهها تشتد لتكون منيعة ضد نظراته التي تتحسس فمها وجبهتها وخديها. يزعجها ما يمكن لرجل أن يسمح لنفسه به بسهولة تجاه امرأة، وأنها لا يمكن أن تدرأ مضايقته لها من دون أن تبدو في نهاية المطاف فجة، شديدة الحساسية، ومفتقرة إلى الأنوثة .

قصائدها إذن، بما أنه مصمم على ذلك. لا ترغب في الحديث عنها؛ لا تريد أن تكشف لأي شخص، وخصوصًا له، أنها مجروحة، وخجلة، وفي الواقع محبَطة. فتقول: لم تندم قَطُّ على أنها نشرت قصائدها، متخففة وغير واعية بما تفعله، ولا على أنها تخطت الحاجز الذي كان يفصل أعماقها عن العالم . لا «كليمنس » ولا أحد يجب أن يسمع منها كيف تأثرت بأن صدفة غبية وخبيثة كشفت عن الشخص الذي كان متخفيًا وراء اسم الشاعر «تيان ».

لكن المراجعة في مجلة «دير فرايموتيجه»؟ هل تود الادعاء أمامه بأنها لم تمسها؟

مستها؟ يا إلهي. ويل لمن يسلم نفسه لأيدي الجمهور ...

هل المفترض أن الناقد مواطن لها، من فرانكفورت؟

فعلًا. وهو معلم في البلاط بالمناسبة، ويوقع بحرف «إ».

معلم في البلاط! سمع «كليمنس» أنه فشل في شعره الخاص، وأصبح ينتقم بأفضل ما يستطيع من كل موهبة لا يقف وراءها رعاة أقوياء. يجب عليها أن تعرف أن الحسد قوة دافعة لا تصدق.

حسنًا. لا ترى «جوندروده» أن لهذا الإدراك أن يحسن الوضع ولو بأقل درجة؛ نغمة المراجِع المتعالية، وتوازنه بين الإطراء الزائف والتوبيخ الفاحش، الذي لا يسمح لضحيته بأن تظهر أي رد فعل؛ وضعه أجزاء من جُمل متناثرة في النص بحساب دقيق، بحيث تَثبت في رأسها بمائة مخلب. «روح أنثوية جميلة وحساسة» و«إطراؤها السخيف إلى حد ما في صحيفة عامة»؛ كما لو أن لهجة الإطراء تعتمد عليها بأي شكل! عبارات مثل «مَشد»، و«سُترة مهرج». ولكن قبل كل شيء: البعض لديه ذكريات وينظر إليها على أنها أفكار أصلية.

الندم الوحشي الأول، على خروجها بين الناس باعترافاتها، قد تبدد. أمام «كليمنس»، الذي يعبر عن غضبه، وهو غاضب فعلًا، تدعي الهدوء. ولكن سمًّا حاذقًا، أثره لا يمحى، قد سرى إليها من هذه السطور، ونوعًا جديدًا من الخوف أيضًا. تشعر برغبة قوية جدًّا في أن تدع نفسها تسقط أرضًا. أن تذهب بعيدًا، أن تختبئ، أن تبحث عن آخر مخبأ لا يمكن اكتشافه، حيث لا يمكن لأحد أن يجدها، لا صديق، ولا عدو. لن يهينوها. لديها الترياق ضد ذلك وستعرف كيفية استخدامه. يا لها من مواساة، ألا يكون المرء مجبرًا على العيش.

يعتبر «كليمنس»، في شغفه المفرط، أن الثناء الزائف من كاتب المراجعة التافه سخيف، وأنه يعني بلومه شيئًا لطيفًا، وأن الكاتب نفسه رجل فظ، وأنه مجرد مخربش في صحيفة يقرأها كل غلام يعمل في متجر.

تقول أخيرًا:

. «كليمنس»، أرجو أن تتركني لشأني. عليَّ أن أكتب، هذا ما أنا متأكدة منه. هناك شوق بداخلي للتعبير عن حياتي في شكل دائم. ولم يسرني أي تصفيق لقصائدي بقدر ما أسعدني ما قمث به. لكن هل تعتقد أنني مجنونة بذاتي لدرجة أنني لا أعرف مدى بُعدي عن تحقيق ما أصبو إليه؟

على «كليمنس»، الذي هي معجبة به، أن يعرف أن عدم الرضا عن النفس هو الدافع الحقيقي. هذا الخجل، لا بد أن يعرفه أفضل منها .

«بتينه» ونظراتها القلقة. بالطبع كانت هي التي طلبت من شقيقها أن يأتي معها من أوفنباخ. شعرت «جوندروده» بتأثر غير مريح عندما كان هو أول من رأته لدى دخولها، وإلى جانبه السيدة «صوفي ميرو» . امرأة باهرة الجمال بلا شك، والزوجة السابقة للأستاذ «ميرو» من مدينة ينا، والتي غازلها «كليمنس» بإلحاح وإصرار، لدرجة أنها، في النهاية، وهي مضطربة وغير متأكدة إلى من تميل مشاعرها، تبعت الرجل الذي كان أكثر من أساء إليها .

قرأت «جوندروده» كل الرواية النفسية لـ«ميرو» في نظرتها الأولى: الشعور بالذنب، والتحدي، والتباهي، واليأس. طفلك؟ نعم لحسن الحظ شُفي الآن وأصبح بعيدًا عن الخطر .

كم أفرحها ذلك! عانقت «جوندروده» «صوفي»، فبدا أن ذلك قد أدهش الأخرى وأسعدها. كثيرًا ما رأت «جوندروده» نساء أخريات يبحثن عن حكمها، وهي لم تفهم ذلك. قالت :

. «صوفي»، طفل! لا بد أن هذا يجعلك فخورة. لا أعرف أي شيء أكثر أهمية .

وكادت تُضيف: «لن يكون لي أبدًا طفل ».

«كليمنس»، الذي كان يراقب بشبه قلق لقاء السيدتين، تدخل قائلًا كم كانت «صوفي» بارعة. وكيف تسلقت الجبال الخطيرة معه بعد أربعة عشر يومًا من الولادة الصعبة. لو قلبها المرء رأسًا على عقب فستسقط دائمًا واقفة على قدميها .

اتفق رأي المرأتين كم الرجال صبيانيون .

استمر «كليمنس»، وهو يشعر بأبهة الامتلاك، في الحديث عن طفله، الذي يعجبه إجمالًا للغاية. عندما يحمله بين يديه يشعر بفرحة كبيرة به .

فقالت «صوفي »:

. إنها فرحة ثرثارة، يا عزيزي «كليمنس ».

أجاب بشيء من الغضب :

. ربما. لا أجرؤ تمامًا على حبه بكل جوارحي. فقد يكون بمقدوره أن يجمع كل هذا الحب ويذهب به إلى العالم الآخر .

قالت «ميرو» لـ«جوندروده »:

. هأنتِذي تسمعين ذلك. لم يجرؤ قَطُّ على حب أي إنسان بكل جوارحه. ما يحبه حقًّا هو أن يعبِّر عما في نفسه حول هذا الموضوع .

صرخ «كليمنس» شاكيًا أنهما تُعيبان الآن عليه! والتقطت زوجته نبرة الحديث وضحكوا ثلاثتهم. انضمت «بتينه» إليهم، تفحصتهم ثم قالت إنهم أناس غريبون، فأعينهم تتحدث بلغة مختلفة عن أفواههم. نهرها شقيقها وجذبها من شعرها. لاحقًا قالت «جوندروده» لـ«بتينه» إن عليهما ذات مرة التفكير فيما يعنيه أن أكثر الأشياء جدية وإيلامًا تدور بين الناس في حفلة تنكرية، وإن لم يختبئ مرض خطير للمجتمع وراء كل هذه الأفواه المبتسمة .

فهمتها «بتينه» على الفور. طلبت فقط التساهل مع شقيقها، الذي هو في الصميم طيب القلب، وتعيس .

لكني لا أحمل له ضغينة! حتى «بتينه» لا تريد تصديق ذلك. غالبًا ما يبدو غريبًا بالنسبة إليَّ أنني لا أستطيع أن أكره، وأنني أنسى الإهانات التي توجَّه لي، ولكنني لا أنسى أبدًا ظلمًا أوقعته أنا على شخص ما. لماذا يجبرونني على تذكر تلك الأوقات المؤسفة؟

نقطة واحدة تحاسب نفسها عليها بحدة: لم تعطِه أي ذريعة، ناهيك عن الحق، في محاولة اجتياح مشاعرها . إنها تعرف أن مجتمع فرانكفورت يعتبرها لعوبًا: إنها بالطبع الغيرة العادية لبنات البرجوازية غير المرغوبات، لكنها تؤلمها فعلًا . تعرف جيدًا جدًّا الأسباب التي يمكن أن تولد لدى امرأة ميلًا غير واعٍ تجاه الرجل: الشعور بالضياع، والخوف من الوحدة المخزية. لا يزال الرجل، الذي تدفعه أنانيته إلى اعتبار أنه لا يقاوَم، يعرف كيف يفسر إشارات خفية كهذه على أنها دعوة. عدم الثقة بالنفس سيكون أكثر ملاءمة، لأنها تعتبر نفسها قادرة على الاستسلام غير المحسوب وغير المحدود. لكنها في حالة «كليمنس» على يقين من أنه أساء فهمها. عليها أن تخبره بذلك .

يقول إنه مندهش كيف أنها متشبعة بوعي قوي بقيمتها الخاصة، وكيف تسمح لنفسها أن تكون عادلة بمقياس غير اعتيادي لبنات جنسها. يقول إنها متغطرسة، ويتساءل إذا كانت تعرف ذلك .

ليست تلك المرة الأولى التي تسمع فيها «جوندروده» ذلك، ولا جدوى من أن تدفع عن نفسها تلك الاتهامات. تقول :

. أعرف نقاط ضعفي. وهي ليست في المكان الذي تبحث عنها فيه .

تقول إننا لا نستطيع الاعتماد على أن نُفهم .

هذه المرأة لا يمكن كسرها؛ هي لا تحتاج أن تكون متسلطة. توقظ في «كلايست» ذكريات غريبة. الآن، وهي تضحك ضحكة تصالحية، وتربت بهدوء على كتف «برنتانو» كما لو أنها تريد طلب السماح منه، والساعة المزخرفة فوق رف الموقد تدق دقة خافتة لا يسمعها غيره، الآن تحديدًا يتذكر دبابيس الشعر المفكوكة لـ«فيلهلمينه». يرى نفسه وهي معه متجسدَين تحت التعريشة الصيفية خلف بيت آل «تسنجه» في فرانكفورت على نهر الأودر، تحميهما العسلة الكثيفة من نظرات الآخرين، والكتاب، «لويزه» لـ«فوس»، على الطاولة البيضاء الصغيرة بينهما. تسمح له

«فيلهلمينه»، مائلة برأسها ومنبسطة المزاج، بفك شعرها الذي لم تنسَ ملمسَه أطرافُ أصابعه. كم لا يزال يعرف، وسيظل دائمًا يعرف ما شعر به: الإحراج والذنب. الآن تمسُّ إحساسَه تلك الصورةُ؛ لماذا تركته باردًا إلى حد محرج عندما لم تكن مشهدًا صامتًا بعيدًا، بل ساعة حب حقيقية: هو، العاشق، الذي كان. والله يشهد على ذلك ـ عليه ألا يكتفي بالمشاهدة بل أن يتصرف، و«فيلهلمينه»، الفتاة المسكينة، لا صورة خيالية تحاكي البورتريه الذي أعاده لها كما كان يتوجب عليه، وإنما العروس المقربة والحنون. الرائحة الرقيقة لخيبة الأمل التي تتخلل الحدث.

آه يا للعادة السيئة الفطرية، أن أكون دائمًا في أماكن لا أعيش فيها، أو في زمن مضى أو لم يأتِ بعد.

وعندها، ومباشرةً قبل أن تتلاشى الصورة بأمر من تفكيره، يرد إلى خاطره ما لا يريد أن يعرفه: في ذلك الوقت كانت أول وآخر مرة تحدث فيها عن حلمه. إنه يحتاج للإفصاح عن أعمق أسراره، وقد بذل جهودًا مضنية لبناء أسوار منيعة في نفسه كي يقاوم ذلك. يعتقد أحيانًا أن تخوُّفه من الكلام، الذي ينتابه وهو بين جمع من الناس، هو وسيلة تسعى الطبيعة من خلالها إلى مساعدته: هكذا يتخيل الطبيعة الآن. ولكن بعد ظهر ذلك اليوم، وقد كان مكتئبًا بسبب تخدُّرٍ نفسي لم يُرِد الاعتراف به ورغب مع ذلك في شرحه، كسر نذره وأخبر العروس بالحلم الذي كان يراوده منذ أن ترك الجيش، والذي كان يستيقظ منه باكيًا في كل مرة.

كان يرى دائمًا حيوانًا أشعث، خنزيرًا بريًا، مخلوقًا جميلًا، وسريعًا، وكان يطارده في عدوٍ لاهث، بهدف أن يضع له لجامًا، أن يركبه، أن يُخضعه. وكلما حاذاه في العدْو، وأصبح جلده البُني على مقربة من عينيه، ولامسته أنفاسه الحارة، لم يستطع أن يصل إليه قَطّ. وفي كل مرة ملعونة، عندما يصبح مرهقًا للغاية، حتى يسقط على الأرض، ويكاد الحيوان أن يهرب منه، كان يمسك مجددًا بالبندقية التي يمدها به عدوه المجهول دائم الحضور، ويحشوها، ويصوب، ويطلق النار، والحيوان ينتفض، ويسقط،

ويموت وجسده يرتجف .

يتـذكر أنـهما، بعـدها، ظـلا صـامتين لفتـرة طويلـة، إلـى أن رأى «فيلهلمينه» تبكي. لم يسألها عن شيء، ربت على يدها بلطف وشعر أخيرًا بما فاته من قبل: إنه يمكن أن يحبها. في النهاية قالت، وبدت متماسكة :

. «كلايست»، لن ينجح أمرنا. لن نصبح أبدًا زوجًا وزوجة .

هكذا عاشا لبضع دقائق كل ما سيتجرعان ألمه لسنوات بعد ذلك، ولكن لماذا؟

الحزن القديم، عديم الفائدة، الذي يخشاه يريد أن يجتاحه. عليه أن يتعلم تقطيع الخيوط التي تربطه بذلك الوقت، إن «فيديكيند» محقٌّ. لكن عندما يدرك المرء قدره متأخرًا، يكون الثمن الذي عليه أن يدفعه، باهظًا. وتساءل: لماذا لا يريد ذلك أن يدخل رأسي؟

ذلك الحلم . ظل يتبعه، كل تلك السنوات. إنه بـالكاد يتغير، ويفزعه في كل مرة، بصورة تتعارض مع أي عقل: لا يمكن أن يعني هذا إلا أنه يقف دائمًا مجددًا أمام الانقسام نفسه الذي يخيفه: لديه الخيار. إذا صحَّت تسمية ذلك «خيارًا». بالنسبة إلى الشعور بعدم الرضا الذي يستنزفه، والذي هو الجزء الأفضل منه، إما أن يقتله في نفسه بطريقة مخططة، وإما أن يطلق له العنان، فيهلك هو في بؤس هذه الدنيا. أن يخلق المرء الوقت والمكان وفقًا لاحتياجاته، أو أن يهدر حياته وفقًا لمسارهما المعتاد. هذا جميل جدًا. إن القوى الممسكة به بين مخالبها لا تُهينه من خلال قلة التقدير. سيكون هذا هو مصدر الرضا الوحيد الذي يحظى به في حياته. وسوف يكون على قدره. لن يقوم أي شخص سواه بتنفيذ الحكم عليه. اليد التي عليها أن تكون مذنبة ستنفذ العقوبة. مصيرٌ تبعًا لذوقه . تنتابه رجفة ممتعة عند النظر إلى الآلية الداخلية للروح. مَن يعتاد مثل هذه النظرات، وتأملات من هذا النوع، لا يقع في أي إدمان آخر، ولن يحتاج إلى أي مُخدِّر آخر. ولا الحب أيضًا. ولن يعرف ساعة خالية من الشعور بالذنب أبدًا. مَن يقامر برهان غالٍ إلى هذا الحد، مَن يقامر بنفسه، لا

ينبغي أن يعتمد على وجود رفقاء، ولا على السعادة الشائعة للقدرة على أن يكون صريحًا تمامًا مع الآخرين .

يتفصد «كلايست» عرقًا، يبتل جسده في ثوانٍ. يشعر بأنه يصبح شاحبًا: الضعف في ساقيه مجددًا .

. تفضل، عليك أن تجلس !

قالها مستشار البلاط. في لحظة كتلك يمكنه الاعتماد عليه. يقف، كما لو كان ذلك عن طريق الصدفة، بجسده الثقيل العريض أمام «كلايست»، بحيث يخفيه عن أعين الآخرين. يمده بمنديل. يتجاهل الحادث، كما تمرنوا أن يفعلوا. بارتياح يراقب «كلايست» كيف تمر النوبة، وينسحب القلق قبل أن يتمكن من التحول إلى خوف أو إلى حالة من الاضطراب. يقول :

. السيدات، سيادة المستشار، السيدات هنا يذهلنني .

نعم، السيدات! يصدقه المستشار بطيبة خاطر. يمتدح مازحًا، مع لمسة من الاعتداد بالذات، هواء منطقة نهر الراين الذي يدعم بالتأكيد نموًّا مختلفًا عن التربة الرملية البروسية. مع أنه هو، «فيديكيند»، لا يريد أن يدخل تحت شبهة التقليل من قيمة الفضائل التي يمكن تعلمها من البروسيين أفضل من أي مكان آخر في العالم، مثل: الصرامة، والالتزام بالواجب، والانضباط الذاتي .

يحس «كلايست» وكأنه يستمع إلى أبيه أو عمه يتكلم. يقول بتهذيب يتاخم السذاجة :

. آه، في الخارج لديهم تصورات مُبالغ فيها. نحن، أهل بروسيا، في آخر الأمر بشر أيضًا .

عليه الآن كتم الضحك وحسب، وإلا فلن يجد له نهاية. يقول «فيديكيند» غير مرتاب :

. بالمناسبة: «سافينيي»؟ هل لاحظت وجوده؟

يفهم «كلايست ».

علمه «فيديكيند» طريقة للتصدي لفكرته القهرية المتمثلة في أن الجميع ينشغل سرًّا بنقاط ضعفه: عليه استجماع كل حواسه وقوى روحه والاستغراق في أحد أعضاء الدائرة التي يقف فيها حاليًّا. هكذا سيتوجه اهتمامه إلى شخص آخر بعيدًا عن نفسه، ويتضاءل هذا الانقباض الذي ينتهي به عادة إلى الكآبة .

«سافينيي» إذن اختيار غير موفق. من المستبعد عدم ملاحظته؛ من المستبعد عدم الملاحظة، عندما يواجه المرءَ نقيضُه. الشخص الذي يمكن للمرء أن يقرأ على صفحة وجهه أن اليد السعيدة للطبيعة موجودة؛ أن تَحقُّق الكمال ممكن بين مخلوقاتها. «سافينيي»، الرجل الذي يصنع مصيره بنفسه. غني، مستقل، سامٍ. مدرك في وقت مبكر قيمته، وربما حتى حدوده. غير مرتبط إلا بخطط وأهداف قابلة للتنفيذ. وجد دعوته في أن يكون رجل قانون ـ ولمَ لا؟ يحظر «كلايست» على نفسه الحكم السابق على رجل يطمح إلى مكانة وظيفية .

يتغير مزاجه؛ هو يعرف هذه التقلبات. هل يذل نفسه لدرجة أن يحسد «سافينيي» هذا على السهولة والثبات في التعامل مع أترابه؟ على طريقته في التعامل مع النساء، اللواتي لا يمكنهن مقاومته؟ حتى إن «بتينه»، الفتاة النابضة بالحياة، أصبحت هادئة، لطيفة إلى حد ما، بعد أن أخذها «سافينيي» من يدها وتحدث معها بإلحاح ولكن أيضًا بود؟ على الرغم من أنها ـ ويمكن لـ«كلايست» أن يقسم على ذلك ـ تترك الرجل الواثق بنفسه باردًا .

يمزقه الشعور بأنه لا يعني لهم شيئًا. لم يكتب ذلك العمل الذي سيوجه به ذات يوم أيضًا لهؤلاء هنا ضربات حتى يجثوا على ركبهم. ليس لديهم أي إحساس سابق بمن هو في الحقيقة ـ أي في تخيله الخاص ـ ذلك الغريب الصامت الموجود معهم في صالونهم. ربما وصلت إليهم شائعات؛ بل هو أمر محتمل، نظرًا إلى الطريقة التي يُزهر بها القيل والقال في المنازل الأكثر ثراء على نهرَي الراين والماين. يلتقط «كلايست» نظرات تملأه مرارة .

وأخيرًا، دُعي إلى الشاي .

تجلب فتاة نضرة، يافعة، الصينية وتحييها «بتينه» تحية مبالغًا بها بعض الشيء. تلاحظ «جوندروده» انزعاجًا على وجه الضيف القادم من بروسيا. هي تعرف «بتينه». لا بد أنه يرى إسرافًا في الطريقة التي تأخذ بها الفتاةَ من يدها، وتدعوها باسمها، «ماري»، وتعلن للجميع أن الأغاني التي حاولت عزفها على «الكلافيكورد » قد تعلمتها من هذه الفتاة، التي لا مثيل لإلمامها ليس فقط بالأغاني الشعبية والحواديت، بل أيضًا بالحياة النباتية للمنطقة . تأخذ فنجانَي شاي من الصينية، وتقدمهما لـ«جوندروده» و «كليمنس»، وتمتدح «كليمنس» على مجموعة الأغاني الشعبية التي نشرها، فإن أنغامها مرتبطة بالكلمات بما يُشبه المغناطيس. لا يتجاوب معها الأخ، وهي لا تسأل شيئًا، بل تلقي نظرة فاحصة إلى وجهيهما ثم تتراجع إلى الطاولة البيضاوية الكبيرة حيث يجلس معظمهم، بما في ذلك «كلايست». تقدّم مخبوزات السكر في سلال الخزف ذات الثقوب. للحظة يهدأ المكان تمامًا. تسمع «جوندروده» نبض قلبها، وينطلق بداخلها رجاء أحمق. ثم تقول «جوندا سافينيي »:

. مرَّ ملاك من خلال الغرفة .

يتجهم «كليمنس»، فهو لا يحب مسحة الطبيعة العاطفية في هذه الأخت. و«جوندروده» لا تسمح لنفسها بأي انفعال تجاه «جوندا»، فهي تعلم أن ارتباط الصداقة بـ«سافينيي» لا يمكن أن يدوم إلا إذا التزمت بدقة بالقواعد: أنه ارتباط بين ثلاثة، و«جوندا» هي ثالثتهما. لا يسع «جوندروده» إلا أن تبتسم. ليست «جوندا» الثالثة في هذا الارتباط، بل هي، بغض النظر عما يؤكده لها الاثنان الآخران. الحب يربط بقوة أكثر من الصداقة . من يمكن أن يعرف ذلك إن لم تكن هي؟

ما الذي أضحكها؟ آه «كليمنس»! بصراحة، لقد بدأ يعتاد على سخريتها السرية، المتمثلة في أنها أخفت عنه موهبتها الشعرية، ولم تُرِه أيًّا من محاولاتها: وتحديدًا لإحراجه، نشرت ذلك الكُتيِّب من وراء ظهره .

لماذا أتت معهما؟ كان عليها أن تعرف نفسها. ولإقناع نفسها تقول إن المكان الشاغر في عربة خيول «ميرتن»، والرجاء المُلح من صديقتيها «باولا» و«شارلوته سيرفيير». التوأم الذي يذكر الجميع اسميه في نفَس واحد. كانت هي الأسباب. أما السبب الحقيقي فقد أصبحت تراه الآن بوضوح، وتفهم ترددها العنيف الغريب: كان عليها أن ترى «سافينيي» مرة أخرى. إنه دائمًا الشغف الذي يدفعنا إلى فعل ما لا نريده .

لا يستطيع «كليمنس» أن يهدئ نفسه ويتقبل أنه لم يلاحظ مثل هذا الكمال في نفسها، كما تظهره قصائدها. يقول إنه لم يسعَه إلا أن يبكي تأثرًا بالمهارة الرائعة لمشاعره، لأنه اعتقد أنه يستشعر في قصائدها أصداءً لمشاعره هو .

المهم أن أهدأ. فإنني لم أقُم لفترة طويلة بتربية نفسي حتى أكون مستعدًا لكل شيء .

تقول «جوندروده »:

. «كليمنس»، ما كنتَ لتقول ذلك لرجل. لماذا لا تريد أن تعترف لي بأني أحاول تجميع نفسي في الشعر كما في المرآة، وأن أشاهد نفسي، وأغوص بداخلي وأنطلق إلى ما وراء نفسي؟ إن قيمتنا في حكم الآخرين، وحتى الأجيال اللاحقة، ليست في أيدينا، وأنا لا أكترث لهذا. لكن كل ما ننطق به يجب أن يكون صحيحًا، لأننا نشعر به: وهكذا أكون قد بُحت لك باعترافي الشعري .

تقول لنفسها: حسنًا، فقط من دون طموح زائد، ولا مبالغة في التكلف والتفصح والاعتداد بالنفس. يمكن أن أفقد كلًّا من الحياة والكتابة، لكن ليس لديَّ خيار آخر. وحتى الصداقة تضن عليَّ بأوهامها السعيدة .

. نعم !

قالها «كليمنس» بمرارة غير متوقعة، كما لو أنه سمعها وهي تحدث نفسها، وأضاف :

لماذا أتت معهما؟ كان عليها أن تعرف نفسها. ولإقناع نفسها تقول إن المكان الشاغر في عربة خيول «ميرتن»، والرجاء المُلح من صديقتيها «باولا» و«شارلوته سيرفيير». التوأم الذي يذكر الجميع اسميه في نفَس واحد. كانت هي الأسباب. أما السبب الحقيقي فقد أصبحت تراه الآن بوضوح، وتفهم ترددها العنيف الغريب: كان عليها أن ترى «سافينيي» مرة أخرى. إنه دائمًا الشغف الذي يدفعنا إلى فعل ما لا نريده .

لا يستطيع «كليمنس» أن يهدئ نفسه ويتقبل أنه لم يلاحظ مثل هذا الكمال في نفسها، كما تظهره قصائدها. يقول إنه لم يسعَه إلا أن يبكي تأثرًا بالمهارة الرائعة لمشاعره، لأنه اعتقد أنه يستشعر في قصائدها أصداءً لمشاعره هو .

المهم أن أهدأ. فإنني لم أقُم لفترة طويلة بتربية نفسي حتى أكون مستعدًا لكل شيء .

تقول «جوندروده »:

. «كليمنس»، ما كنتَ لتقول ذلك لرجل. لماذا لا تريد أن تعترف لي بأني أحاول تجميع نفسي في الشعر كما في المرآة، وأن أشاهد نفسي، وأغوص بداخلي وأنطلق إلى ما وراء نفسي؟ إن قيمتنا في حكم الآخرين، وحتى الأجيال اللاحقة، ليست في أيدينا، وأنا لا أكترث لهذا. لكن كل ما ننطق به يجب أن يكون صحيحًا، لأننا نشعر به: وهكذا أكون قد بُحت لك باعترافي الشعري .

تقول لنفسها: حسنًا، فقط من دون طموح زائد، ولا مبالغة في التكلف والتفصح والاعتداد بالنفس. يمكن أن أفقد كلًّا من الحياة والكتابة، لكن ليس لديَّ خيار آخر. وحتى الصداقة تضن عليَّ بأوهامها السعيدة .

. نعم !

قالها «كليمنس» بمرارة غير متوقعة، كما لو أنه سمعها وهي تحدث نفسها، وأضاف :

ـ هكذا أنتِ. دائمًا متحفظة، ودائمًا مسيطرة على نفسك. دائمًا صارمة مع نفسكِ والآخرين. دائمًا مرتابة. أنتِ لا تحبينني، يا «كارولينه»، ولم تحبِّيني قَطُّ .

ألم يتفقا على التزام الصمت حيال هذه النقطة؟ هذا يكفي، يكفي تمامًا، إنها منهكة جدًا. لماذا لا يكف عن الكلام؟ ويسمي نفسه أفضل أصدقائي، بل صديقي الحقيقي الوحيد. هل يمكنه أن يعلم أني الآن لا أستطيع الشعور بأي شيء سوى الخوف من الموت الداخلي، والرعب من الخراب الذي سيستشري بداخلي حينما يغادرني شبابي؟ صديقي، أصدقائي! أفهم نظراتهم جيدًا جدًّا . أبدو لهم غريبة، لكنهم لا يستطيعون تحديد السبب. أنا أعرفه: لست في وطني بينهم. حيث أنا في دياري، لا يوجد الحب إلا في مقابل الموت. وأنا مندهشة من أن لا أحد سواي يعلم هذه الحقيقة الواضحة، وأنني مضطرة إلى إخفائها، مثل البضائع المسروقة، في سطور قصائدي. من يملك الشجاعة لأن يأخذها حرفيًا، وينطق بها بصوت طبيعي، كما لو كانت اعترافًا آخر. عندها سوف يتعلمون الخوف .

فجأة، كما يحدث لها في كثير من الأحيان، ترى التخطيط . منفصلًا عن نفسها وعن الآخرين . الذي قد تشكله علاقات الناس في هذه الغرفة إن أُسقطت كرسمة بيانية على ورقة بيضاء ضخمة، مزيجًا غريبًا من الخطوط المتشابكة، والمتصلة بطرق متنوعة، والقوية بدرجات مختلفة، والمنقطعة أيضًا بغتة. صورة جميلة بشكل فريد، وتكاد لا تعنيها. ترى النقطة التي تتجنبها جميع الخطوط، والتي نشأت حولها بقعة خالية: «كلايست»، الذي لا يعرف أحدًا سوى طبيبه، ولا يتوجه إلى أحد غيره. تتأثر بالطريقة التي يضع بها قدميه خلف رجلَي كرسيه، بينما يستمر في الإمساك بفنجان الشاي الذي فرغ منذ فترة طويلة . هل تقتضي أصول المجاملة أن تجره إلى الحديث؟ أم أن تتركه في هدوئه الذي يعني له كثيرًا؟ لا تعرف «جوندروده» تفسيرًا لنظرته التي التقتها عدة مرات .

أيضًا شخص يأخذ نفسه على محمل الجد أكثر مما ينبغي .

يفكر «كلايست»: إن «برنتانو» يتمتع بحقوق تجاهها على ما يبدو. مثل «فيديكيند» تجاهي .

لا شك أنه يدين له بالشكر. لقد استقبله «فيديكيند» كما يستقبل المرء مريضًا ميؤوسًا منه، بلا تحفظات ومن دون طرح أسئلة. من الممكن جدًّا أنه أنقذه؛ ولكن، من قال إن على المخلِّص أن يتبع مخلِّصه أينما ذهب؟

لا يعرف «كلايست» شعورًا معذِّبًا أكثر من العار .

كما لو كان لا يعرف ما الذي يربطه بـ«فيديكيند». الاهتمام بمريض، هذا أمر يُفترض على الطبيب القيام به؛ لكن طريقة الإنقاذ هي ما لا يستطيع «كلايست» أن يغفره لنفسه أو له. قد تتمثل أعلى درجات الجحود في لوم الطبيب سرًّا على أنه استطاع حل جمود مريضه، باستخدام العلاج الوحيد الناجع ضده، بنجاح : جعْله يتكلم؛ استدراجه تدريجيًّا، بواسطة أسئلة متعاطفة، وقد ظن نفسه أنه هلك، وأصر بعناد على صمته. لن ينسى «كلايست» أبدًا كم كان مريحًا، ومذلًّا في الوقت نفسه، أن يتجاوب أخيرًا مع دفعاتٍ حذرة؛ وكيف كان يحتاجها ويشمئز منها في الوقت نفسه. فقد لاحظ بالفعل كيف كان المستشار يربط له جمله الخاصة، التي كان يصف بها حالته بدقة شديدة، مثل حبل يجذبه به شيئًا فشيئًا خارج الخطر. إنها صورة يجب أن تؤخذ حرفيًّا. عندما قدم «كلايست» من فرنسا وانهار في ماينتس، شعر بنفسه محطمًا في قاع حفرة، وكان أي شخص لا يشاركه هذا الشعور لا يطاق بالنسبة إليه. حتى الطبيب نفسه، الذي كانت علامات السلام النفسي والصحة مرسومة في وجهه. العقل والاعتدال والاقتصاد في استخدام الطاقات . نعم ومرة أخرى نعم! كيف يمكن للصحيح أن يفهم المريض؟ احتفظ المستشار بنصائحه لنفسه، حتى لا يستفز المريض. هذا الأخير قليلًا . شخص غريب! . عندما وجد المقارنة التي وصفت حالته بأكبر وضوح ممكن: سقط في طاحونة كسرت عظامه واحدة واحدة وفي الوقت نفسه مزقته .

لا شك: كان الرجل يعاني. رآه الطبيب ينكمش على نفسه، سمعه يئن كأنه يتعرض لتعذيب. يتذكر «كلايست» أن الألم انتزع منه اعترافات، محاولات لوصف الألم :

. لا أحد يستطيع أن يتحمل هذا طويلًا يا دكتور. إما أن يتوقف هذا وإما أن يقتلني .

يعرف «كلايست» منذ ذلك الحين أن الكلمات لا تستطيع أن تصور الروح، ويعتقد أنه لا يجب عليه أبدًا أن يسمح لنفسه بالكتابة مجددًا .

ثم سار مرة أخرى خلال الشوارع الباردة في شتاء ماينتس، في وحدة لا توصف، ظنها خطأ هدوءًا، إلى أن هزته حتى الأعماق نظرةٌ ألقاها صدفة على نسر محفور في الحجر فوق بوابة مدخل، ظنه نسر بروسيا، وأعادته إلى منزل «فيديكيند» وهو يذرف الدموع :

. هل يمكنك أن تتخيل رجلًا، يا دكتور، يمشي بين الناس من دون جِلد؟ رجلًا يعذبه كل صوت، ويُعميه كل وميض، وتؤذيه أدنى لمسة من الهواء؟ هذه هي حالي يا دكتور. أنا لا أبالغ. عليك أن تصدقني .

. أنا أصدقك .

قالها «فيديكيند»، ليس من دون تأثر، وبقي جالسًا بجوار سرير الرجل المنهك، الذي كان يضغط بذراعيه على جسده، كما لو أنه يريد تثبيت نفسه، ويضرب رأسه على الوسادة يمينًا ويسارًا إلى أن غلبه النوم أخيرًا. في الآونة الأخيرة فقط ألمح المستشار إلى ضيفه أنه يعتقد أنه وجد اسم مرضه في الكتب العلمية، مع وصفه الدقيق؛ لكنه لا يريد أن يسيء التصرف تجاهه ويناقش الطبيعة الملحة لمعاناته، وقيمتها، بواسطة تعبير علمي جاف؛ ولديه أيضًا شكوك بشأن ما إذا كان العلم، الذي تنطوي منهجيته على التعميم الموضوعي، مناسبًا أساسًا للحالات القصوى من العذاب الشخصي، إذ يفتقر إلى التجربة التي تُغير حياة الشخص

المصاب: معرفة أن هناك ألمًا يفضي إلى الموت .

المستشار الطيب. لا بد أنه يعرف منذ زمن طويل أن الناس يفضلون الانهيار تحت أعباء يفرضونها على أنفسهم، ولكنه لم يلتقِ بعدُ . هكذا يفكر «كلايست» بفكاهة ملتوية . بإنسان مثلي يتمم انهيارَه الخاص بدقة جهنمية كهذه. لقد تخلى عن عقيدته القائلة بحرية الإرادة لدى الإنسان، التي كان يفتخر بها كثيرًا؛ أما اعتقاده الصبياني بأن كل شر يحمل شفاءه في نفسه فقد تحطم على صخرة حالتي .

. هناك شيء ما يسحقك يا «كلايست»، شيء لستَ قادرًا على السيطرة عليه .

. كم هذا صحيح! إنها مأساة، يا حضرة المستشار، أن أعتمد على روابط تخنقني عندما أتحملها، وتمزقني عندما أتحلل منها .

هذا شر لا يهون على مر السنين، وإنما يصبح أكثر حدة .

مهما أملَ المستشار . الذي تعلم أن يهاب كبرياء هذا الرجل . أن ينسى «كلايست» المشاهد المهينة من الأيام الأولى، فإن «كلايست»، لعذابه، احتفظ بكل شيء: أنه بكى وصاح، وأنه استجدى تعاطف المستشار، وهو شخص غريب عنه. أنه ترك نفسه يُستدرَج إلى البوح باسمين كانا ما يحرقه: «أولريكه»، «فيلهلمينه». أنه أعطى صورة رجل يائس، يسحقه إحساسه بدَين ما، بفشل ما، إلى أن فقد «فيديكيند» يومًا أعصابه، وهزه من كتفيه، وصاح في وجهه :

. يا بني، ما ذلك الأمر الذي عليك أن تلوم نفسك لأجله؟ !

وعندها انفجر «كلايست» في نوبة من الغضب حتى الإنهاك، ثم نام لليلة ونهار كاملَين، وعندما استيقظ، أعلن بهدوء وثبات أنه يعرف الآن ما عليه أن يفعله : سيصبح نجارًا .

يكز «كلايست» على أسنانه. لو كانت هناك وسيلة لإطفاء الجهاز الذي وُضع في رأسه بدلًا من الذاكرة العادية، والذي لا يقدر إلا

على تكرار الأفكار نفسها بالترتيب نفسه، الحديث الداخلي الأبدي نفسه، المُعذِّب والذي لا ينتهي، الحديث الذي عليه أن يعيده كل تلك الأيام التي لا تحصى للدفاع عن نفسه أمام مُدعين غير مرئيين، مهما فعل، وحيثما حلّ وارتحل، حتى ليلًا عندما يستيقظ فجأة قرابة الرابعة .

إنه أمر يقود إلى الجنون .

. عفوًا، ماذا؟

أنا؟ لا شيء. مجرد خطأ. عادة غبية .

«جوزيف ميرتن»، المضيف. تاجر التوابل والعطور بالجملة في فرانكفورت على نهر الماين. عاشق الفنون والعلوم .

. أرجو أن تكون مرتاحًا !

. مرتاح جدًا، كأفضل ما يكون. شكرًا جزيلًا .

لن ينتمي الرجل إلى القرود الذين عليهم تزيين صالونهم البرجوازي ببعض الألقاب الأرستقراطية حتى وإن كانوا فقراء. صحيح أن «فيديكيند» أكد له أن هذا على الأقل من تأثير الجوار الفرنسي: عادات التبجح الأحمق هذه قد خرجت عن الموضة. حينها هتف «كلايست »:

. أصدق ذلك! وهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن لهذا الشعب الفاسد القيام به: التخلص من بعض الموضات المتأخرة .

. «كلايست»! هل هذا ممكن؟ أنت تكره الفرنسيين !

. بالتأكيد. أنا أكرههم .

يفكر: كما يكره المرء ما أحبَّه أكثر من اللازم .

يظل الرجل لغزًا بالنسبة إلى الطبيب في كثير من الجوانب، وقد عاد بعد تحسن صحته لانغلاقه التام على نفسه. يعطي الانطباع، عندما يتكلم، بأنه يفعل ذلك بإرادته الحرة . لا ألفة بعد الآن.

عندما يستجمع المرء قواه فتصل به إلى السخرية، فإنه يكون أمام لعبة رابحة .

وهكذا شرح لعائلة المستشار في يوم من الأيام، دائمًا بتلك النغمة المرحة، صعوبة احتراق الأوراق . خاصة إن لم يكن لدى المرء إلا موقد بائس، مسدود، كريه الرائحة، ينبعث منه الدخان، ليضعها فيه. ولكن عندما تأتي ألسنة النار أخيرًا على حواف الأوراق، تلتوي الصفحات في الحرارة، وتشتعل، وتتحول إلى رماد: يا للشعور بالاستثارة والارتياح الذي يعتري المرء عندها! وكم يشعر المرء بأنه حر! كم هو حر بشكل لا يصدق !

. حر؟ ممَّ؟

ضحك «كلايست» ضحكة مصطنعة :

. حر من الالتزامات التي أقنع المرء نفسه بها وحسب .

لم يمكنهم الحصول على المزيد منه. فقط لو لم يقرأ المستشار ذلك الخطاب، خطاب «فيلاند»، الذي كان يجب أن تمزقه رصاصة إنجليزية، ومعها قلبه في الوقت نفسه .

يجب عليك إكمال مسرحيتك «جويسكارد»، حتى لو كانت تضغط عليك جبال القوقاز والأطلس كلها .

بحق السماء، كم هذا محرج. سيظن «فيديكيند» أن هذه هي النبرة المعتادة بين الأدباء، ومن ثَم سيبدو له منطقيًا أن يقع إنسان يعاني من نظام عصبي مضطرب ضحيةً لتطلعات أصدقائه المبالغ فيها .

من أنا؟ ملازم بلا غِمدٍ. طالب بلا علم. موظف دولة بلا وظيفة . مؤلف بلا عمل أدبي .

«مريض نفسيٌّ». أفضل ما يمكن أن يفعله المرء هو أن يستوعب هذه العبارة، التي سيحتاجها بالتأكيد .

فقط عدم الكتابة مرة أخرى. كل شيء إلا هذا .

تأتي «جوندروده» عبر الغرفة في اتجاهه، لتأخذ منه الفنجان الفارغ. لا يمكن للمرء الذهاب حين يريد، فقط لأنه مُعتمد على عربة خيول شخص آخر. كيف تتثاقل الدقائق. ماذا يحدث؟ يبدو أن «بتينه» تريد أن تأخذ شيئًا ما من حقيبة الزينة الخاصة بـ«جوندروده». حركة خرقاء. تتركها تسقط، ينفلت شيء منها، وينزلق على الأرض الناعمة. غريب جدًّا: خنجر. «كلايست»، حاضر الذهن، يلتقط السلاح ويعطيه لـ«جوندروده ».

. أداة غريبة، يا آنستي، في حقيبة زينة سيدة شابة .

. غريبة؟ ربما. أراه أمرًا طبيعيًا جدًّا .

تنتزع «بتينه» منها الخنجر. منذ فترة طويلة تريد أن تتفحصه عن كثب. من كان ليعتقد أن «جوندروده» تحمله معها؟

يقف الجميع كأنما استجابة لإشارة. يسمع «كلايست» عن غير قصد كيف يسألها «سافينيي» بصوت منخفض :

. دائمًا؟

وكيف تجيب «جوندروده »:

. دائمًا .

يهز «سافينيي» رأسه مهمومًا . ينتقل الخنجر من يد إلى يد، يفحصون حافته، يجدونها حادة، يعجَبون بمقبضه الفضي. الجميع يعرف خنجر «جوندروده»، أما «كلايست » فليس بوسعه إلا أن يدهش. «شارلوته» و«باولا سيرفيير»، التوأم الجميل، تتظاهران بأنهما تتبارزان، ويتدخل «فيديكيند»، ويصادر السلاح، ويعلن بنبرة شبه جدية أنه، بوصفه طبيبًا، له الحق في الاحتفاظ به، بسبب الخطورة الواضحة .

تقول «جوندروده» بجدية غير معهودة :

. لا، لن تفعل ذلك !

وفي ظل صمت الجميع يعيد لها المستشار الخنجر، وهو ينحني

احترامًا. من دون اكتراث تضعه في حقيبتها .

حدثٌ يستعصي على الفهم. إنها اللحظة المناسبة لينفتح الباب ويدخل أحد الخدم لتقديم النبيذ. لكن الحديث كان فقط عن الشاي! لا يسمح «ميرتن» بأي اعتراض، فالنبيذ ينتمي إلى المنطقة، ولا علاقة له بحسن الضيافة. وبالمناسبة، هذا النبيذ من كرومه، وهو يضمن جودته. الرجل يحب أن يشرب، هذا واضح .

راقب «كلايست» الأمر: «سافينيي» مستاء من لعبة الخنجر. ويعتقد أنه ليس مخطئًا في ملاحظته أن «جوندروده» تريد أخذ «سافينيي» جانبًا للتحدث معه على انفراد؛ لكن الأخير يتجاهل إيماءاتها ويتحول إلى «كلايست» . ذريعة مرحَّب بها :

. سمعت أنك آتٍ من باريس؟

رائع، يا «سافينيي». أنت بارع في ذلك، يا صديقي: في الانتظار. أن يخفت الضوء وأقف في الظلام، وحدي .

تكره «جوندروده» الاعتماد على كثير من الأمور التي لا تريد أن تعترف لها بأي تأثير عليها، وأكثر من أي شيء آخر تكره أن يكتشف أحدٌ ذلك. عار. إن «جوندرودشن» جيدة جدًّا، لكنها ضعيفة للغاية. هكذا قِيل لـ«سافينيي»، وقد أعلمها بالأمر. والآن هو يخبر «كلايست» بإسهاب عن خطته للسفر إلى باريس بغرض الدراسة. يبدو «كلايست» متحفظًا. باريس؟ حسنًا، بالنسبة إلى عالِم حقيقي... «سافينيي» مرة أخرى: آه، هو، بوصفه كاتبًا، ألم يكن راضيًا؟

ثرثرة. لو صمتت كل الأفواه بضربة واحدة وارتفع صوت الأفكار. تلك واحدة من الرغبات الجامحة التي قد يلومها عليها «سافينيي». بإمكانه أن يقول، بطريقة معينة في النطق: «السلوك، لعبة الضوء والظل الشهيرة، يا «جوندرودشن»، أرى أنها في الحقيقة لا تنتمي إلى جوهرك الحق الحقيقي، حتى لو لم يعرف كثير من الناس شيئًا عنك غيرها ».

كم أعرفه. لا يجب أن أكون شديدة الرقة، أو الكآبة أو الحنين، بل

أن أصبح واضحة وثابتة ومليئة بالفرح بالحياة. آه يا «سافينيي».
ماذا يعني هذا؟ يعني أن «جوندرودشن» لن تضايقك بعد الآن. لن تفهم فقط ما قُدِّر لها: أن تبقى في الظل، بل ستلتزم الصمت حياله أيضًا؛ وبالطبع، الأروع والأكثر راحة أنها ستبتهج به، «جوندرودشن» الشريرة، طفلتكم المدللة. لن تجعل أي إنسان يشعر بالذنب. إنه فعلًا على حق .

وهو أيضًا محقٌّ ضدَّ «كلايست»، أرى ذلك في وجهه الذي يبقى متفوقًا، فيما الآخر غبي بما يكفي ليتوتر. لكنه يتلعثم، أو كيفما يسمونها؛ لديه عيب في النطق يُعيق تدفق الجُمل، يجعله يتعثر، ربما فقط عندما يكون مضطربًا، كما هو الآن. نعم، أسمعهما بشكل واضح! هل يتجادلان حول «روسو»؟ يصرخ البروسي قائلًا إن «روسو» الكلمة الرابعة التي ينطق بها الفرنسيون دائمًا. وكم سيخجل إذا جاء إلى باريس الآن وقيل له إن هذا من نتائج أعماله .

كان عليها أن تحذر الشاب. في هذا النص يتفوق «سافينيي» على الجميع. تعرف سابقًا النبرة التي سيجيب بها: مندهش للغاية. يسأل :

. كيف! (نعم، بهذه النغمة) لعلك سعيت وراء آثار أفكار «روسو» في فرنسا اليوم !

«كلايست» مرة أخرى، ولكن بهدوء الآن، بغير اكتراث يصل إلى حد الكوميديا :

. نعم. ولمَ توضع أفكار في العالم، إن لم يكن لغرض تحقيقها؟

ترى «جوندروده» الأفكار في رأس «سافينيي» جيد التكوين: آه، هو واحد من هؤلاء. من النوع المتحمس. إنها تعرف كيف فشلت مرارًا في الدفاع عن نفسها أمام لومه، وأكثر من ذلك أمام رقته. وكيف أحرقتها الرغبة في رؤيته يعاني. وكيف عانت عندما اعترفت لنفسها بأن درجة التعاطف التي يتطلبها منها لم تعد في إرادتها؛ عندما فهمت من قوة مشاعرها المتزايدة أن ما تشعر به

ليس تعاطفًا وإنما شغَف؛ وعندما كانت شدة إحساسها وتربيتها وكل ظروف حياتها تأمرها بأن تخفي عنه ما تشعر به . ما نجحت به بشكل جيد، ربما بشكل جيد أكثر مما ينبغي، هي المواربة. ومرة أخذ عليها ذلك . بشكل غير مباشر، كما كانا يتكلمان عن هذا الشيء الأساسي دائمًا: يدور الحديث كثيرًا عن «آلام الشاب فرتر»، ولكن الآخرين لديهم أيضًا آلامهم؛ هي فقط لم تُطبَع. مائة مرة، ألف مرة، قرأت تلك الجملة، التي لا تفقد بريقها مع كثرة الترديد، وتستمد منها ما يخفف عنها كل الإذلال الذي ألحقته بنفسها بمساعدته. حقًّا، لقد أسعدتني رسالتك جدًّا ...

هل ما زال ذلك صحيحًا؟ هل تغير كل شيء؟ هل يوجد مثل ذلك؟ ولا يعود الأمر مؤلمًا، يا «سافينيي»، لا يعود مؤلمًا جدًّا، عندما لا يعود المرء محتاجًا إلى خداع نفسه؟ أردت أن أخبرك أن الأمور كانت لتجري بشكل غير طبيعي إلى حد فظيع لو لم نكن صديقين حميمين جدًّا ...

. يدك، «سافينيي»، هل ما زالت تؤلمك؟

. كيف؟ أرجوك يا «كارولينه»! أنا أحاول أن أقود الشاعر الشاب هنا إلى الحد الفاصل بين الفلسفة والحياة ...

. يدك، يا «سافينيي»، لم تعد تؤلمك، أليس كذلك؟

. لا، يا «جوندرودشن»، لأنكِ تريدين ذلك .

. أترى. كان هذا مجرد باب عربة الخيول. لم تحرق نفسك حرقًا شديدًا .

. الأطباء يخطئون، الكل يعرف ذلك. لكن الشخص الذي أقفل باب العربة بقوة آلمني بشدة، يجب أن تصدقيني .

. عليّ أن أفعل ذلك. قصة يدك المريضة جميلة جدًّا، أشعر أنني أفضل اليد هكذا أكثر مما لو بقيت دائمًا صحيحة .

. فقط لا تنسي، يا «جوندرودشن»، أنكِ لم تعودي صديقتي، ولكن أيضًا صديقتنا.

. كيف يمكنني أن أنسى، يا «سافينيي»؟ كلاكما، «جوندا» وأنت، أصبحتما الآن جزءًا من قدري .

هكذا نتكلم في الحلم، أو عندما نتكلم للمرة الأخيرة. «كلايست» ليس مزعجًا في هذا الحديث الحالم؛ هو يشعر بذلك ولم يشعر بأي رغبة في الابتعاد .

. لو كنتُ أخاك، يا «سافينيي». أو أخت «جوندا ».

. يا «جوندرودشن»، أنتِ «جوندروده» صغيرة غبية .

. مستمرة أبدًا هكذا، كمن يمشي ليلًا، من دون خوف من السقوط. لأن الشعور بأني معتمدة على أي شيء في العالم، وأني لست الأولى، حرة فريدة، في أي ظرف، يضايقني . فكروا فقط، أنني أرغب في كثير من الأحيان، بشدة وشجاعة، في أن أنتزع نفسي عنكما وأعيش حياتي السعيدة، المنفصلة، الخاصة بي .

. يا لها من مشاعر ونيات رائعة، يا «جوندروده». لديكِ مواقف فعلًا جمهورية، فهل هذه ربما بقايا صغيرة من الثورة الفرنسية؟ حسنًا، بالتأكيد يمكنكِ التفاهم بصورة جيدة مع صديقنا هنا؛ إنه لا يريد إطلاقًا أن يصدقني في أن الأمور تكون منظمة بشكل أفضل عندما تظل مملكة الأفكار منفصلة عن مملكة الأفعال انفصالًا واضحًا وتامًا .

. سوف يسألكَ سبب هذه الأفضلية .

. سألني ذلك للتو. وأقول له ولكِ: إن الأفضلية تكمن في حرية الفكر التي نحن مدينون بها لهذا التنظيم الحكيم. أم أنكما حقًا لا تريدان أن تريا حجم القيود التي ستُفرض على كل تفكير إذا كان علينا أن نخشى من أن تخيلاتنا يمكن أن تجد طريقها إلى الوقائع الحقيقية؟ بحق السماء، لا: لا ينبغي أن يأخذ المرء الفلسفة بصورة حرفية، وأن يقيس الحياة على صورتها المثالية. وهذا قانون .

. يبقى أن نسأل: هل هذا قائم دائمًا؟ من دون استثناء؟

ـ بالتأكيد. إنه قانون القوانين، يا «كلايست»، الذي تقوم عليه مؤسساتنا الإنسانية بما تنطوي عليه من هشاشة ضرورية. من يقاومه يصبح بالضرورة مجرمًا. أو مجنونًا .

يصرخ «كلايست» وكأنه مسرور :

ـ ها، أشكرك جزيل الشكر، أنت تعلمني فهم «جوته ».

ـ يجب أن تشرح لي هذا .

ـ في وقت لاحق، يا «سافينيي»، ربما في وقت لاحق. إذن، فإن الفلسفة، كما قلتَ بنفسك، أصبحت بلا أرض ولا أساس . يمكنك أن تأخذ ذلك حرفيًا، ولو كنتَ في فرنسا مثلي، ورأيت ما كان عليّ أن أراه، لفهمتَ ما أعنيه . فقد بدّلوا أسبابها، وسحبوا الأرض من تحت الأفكار .

«هشاشة»، كلمته من فم «سافينيي». يقع «كلايست» في حالة من الصمت، ويقف الآن وحيدًا عند النافذة، ويمكن للمرء أن يراهن على أنه لا يرى منظر الطبيعة التي يبدو أنه ينظر إليها، والتي، لو رآها، لانتزعت منه ربما صيحة فرح أو تقدير. لا بد أنه يحدث أن يبقى أحدهم طوال حياته أمام أرض ميلاده، ولا يرى سوى غابات صنوبر، وبحيرات خضراء ضحلة، وحقول الشيلم والشمندر والبطاطا . يعتقد «كلايست» أنه يسمع همس أفكارها خلف ظهره. الساعة تدق الرابعة، بهذا البطء يمر الوقت؛ وفي الجزء الخلفي من الغرفة يتحركون من دون ارتباك، بطريقتهم الحرة التي لا عيب فيها، والتي يبدو أنهم يرون فيها سلوكًا مناسبًا. العادات التي يتحملونها، أو ربما يتوقعونها هنا جديدة بالنسبة إليه، وليست من دون إثارة. يفكر: جميعهم، مع استثناءات قليلة جدًا، يخطئون فهمي .

يقول صوتٌ إلى جانبه :

ـ معك كل الحق .

هناك كلمات لا يتوقع المرء أن يسمعها من «سافينيي ».

يقول «كلايست »:

ـ «هشـاشة». ولكـن مـن أيـن لـك أن تعلـم؟ فمـك يـرتجف مـن الزاويتين .

. يجب على المرء أن يكون حذرًا معك .

. هذا ما يفعله معظم الناس .

. ألا ينبغي لنا أن نفعل ما يفعله معظم الناس؟ وإلا، فأي شيء آخر؟ هل هناك طريقة أخرى للتحدث؟

. كنت أفكر للتو فيما هو عكس الهشاشة .

يقولها «كلايست»، ويكاد يصدق أنه فكر في ذلك .

تقول «جوندروده »:

. الاتفاق، الاصطلاح .

. أنتِ تعرفين ذلك. ألا أسمع في نبرتكِ ازدراءً؟

. أيجب علينا ازدراء ما هو قوي وضروري إلى هذا الحد؟ ما يجب على المرء، بالتالي، أن يلتزم به؟

. إذا استطاع المرء ذلك، فبكل تأكيد .

نبوءة على طراز دلفي؛ «كلايست» لا يحب ذلك. من يجب أن يتحدث عن الهشاشة هو من اختبرها في جسده .

تُسقط المرأة، التي تبدو موهوبة في إدراك مشاعر الآخرين، الموضوعَ وتسأل الآن بأكثر النبرات تقليديةً :

. لقد كنت هنا من قبل بالفعل؟

يجيبها «كلايست »:

. مرتين. المرة الأخيرة مع أختي. أنا أعرف الضفة هنا، ولكن من السفينة .

رحلة نهر الراين مع «أولريكه»، التي انتهت، مثل أي إقامة طويلة معها وحدها، بنزاع وسوء فهم. ماذا؟ نحن نعرف ذلك، لكن يجب ألا نعترف به. لقد أثر فيَّ المنظر الطبيعي، وسيَعجب آل «جوندروده» و«برنتانو» هؤلاء لذلك البروسي المنغلق، لو استطاعوا سماع ما كتبه في رسائل لأصدقائه ويمكنه تلاوته بلا أخطاء من دون ورقة: «إن أجمل منطقة في ألمانيا، والتي من الواضح أن بستانيّنا العظيم عمل فيها بكل حب، هي ضفاف نهر الراين من ماينتس إلى كوبلينتس، التي زرناها بأنفسنا على النهر. هذه منطقة مثل حلم شاعر، والخيال الأكثر فخامة لا يمكنه أن يتصور شيئًا أجمل من هذا الوادي، الذي ينفتح تارةً، وينغلق تارةً، يزهر هنا، ويُقفر هناك، يضحك حينًا، ويجفل حينًا آخر».

حتى «برنتانو»، الذي ولد محظوظًا، ووصل إلى الشهرة مبكرًا وبسهولة كبيرة، كان سيستمع بعناية، ويحتضن الغريب، ويتنبأ للمجموعة أن مثل هذه الجُمل سترد ذات يوم، إذا سارت الأمور في مسارها، في كل كتاب قراءة مدرسي ألماني. وها نحن بكل سهولة ندع أنفسنا تُخدع مجددًا؛ «ذات يوم»، ما بعد القبر، ستسير الأمور في مسارها، طبقًا للقيمة والجدارة، وليس وفقًا للعرف والمكانة والاسم. خرافات .

الآن تحديدًا، مشهد نادر، يقف «البرنتانو» الثلاثة معًا في وسط الغرفة، «كليمنس»، و«جوندا»، و«بتينه»، يبتسم بعضهم لبعض، كما يبتسم الأشقاء فقط، ويرفعون كؤوسهم ويدقون كأسًا بكأس، ويشربون. تشابه أسري مذهل، في الإيماءات والوضعيات أكثر منه في الملامح. بهذه الطريقة يتحرك المرء . هكذا يعتقد «كلايست» . عندما يعتبر أن لا غنى عنه في هذا العالم. يمنع عن نفسه الحق في وصفهم بالمتكبرين، إذ لعل هذا النقص في الشك الذاتي، الذي هو إرثهم، بقي خافيًا عليهم. بالمناسبة، كلهم جذابون، حتى الرجل، كلٌّ على طريقته الخاصة. الأعين الداكنة، والأجْبُن الشاحبة، والشعر البني الغامق المجعد. الأثر الإيطالي، هكذا ألمح «فيديكيند». وبلاغة الواثقين بأنفسهم. لا لسان ثقيل ولا تلعثم. في البناء الجسدي، والمظهر، وطريقة الحركة، وبكل

حماس. يعترف بذلك. هذا ما يسميه المرء «نبيلًا». عِرق جيد.

كفى. كفى. هذا التعطش إلى الشهرة دائمًا، هذا الهراء الذي ينتجه دماغه بنفسه، عندما يكون ضعيفًا بما فيه الكفاية لعدم مراقبته. كتاب القراءة المدرسي! هو يجعل نفسه مثيرًا للسخرية.

يتذكر بصعوبة أنه شكا ذات مرة للطبيب، كيف يعذبه أن الموسيقى التي بداخله قد أصابها الخرس. باستثناء النغمات الشاذة المحطمة للأعصاب التي سببت له ذلك الصداع في الخريف الماضي، في غرفته الباريسية الفارغة الرهيبة التي لم تخرج منها رائحة الدخان البارد، وقد زاد صداعه بعد ذلك إلى درجة أنه كان ليوافق على قلب محورِ الأرض فقط ليتحرر منه.

مجددًا. لا شيء يثير اشمئزازه مثل تلك العبارات الأدبية التي لا تأتي أبدًا في ذروة معاناتنا. حيث نكون صامتين مثل أي حيوان. بل من بعدها، والتي لا تخلو أبدًا من الباطل والغرور. «كان ليوافق على...»! كما لو أنه لم يُبدل فعليًا قطبَي حياته عن قصد، حين قادته معاناته بعيدًا عن المدينة المكروهة وعبر الساحل الفرنسي الشمالي الضبابي: فقد أراد أن يُخضع نفسه لذلك الشيطان في شكل إنساني، العدو الأول. «نابليون». كي يجد الموت في أثناء خدمته على الجزيرة البريطانية، بدلًا من الهرب منه إلى حافة العالم.

هذه الكرة من الخيوط المعقودة في رأسه. يبدأ «كلايست» في نسيان الأسباب التي جعلته يهيم على وجهه، ويختفي التبصر في أفعاله، الذي لا بد أنه امتلكه في وقت ما. يجب عليه الآن أن يصر بوجه الكل على أن المدخل إلى تلك الفترة مغلق أمامه. «مريض نفسيٌّ»، عبارة «فيديكيند» الأساسية، غامضة وغير محددة بما يكفي لتغطية كل ذلك، حتى أمام نفسه. إذ لا يستطيع أي إنسان أن يعيش على المدى الطويل مع العلم بأن الغريزة بداخله تدفعه إلى الخضوع بالضرورة لشر العالم، مهما كانت مقاومته لهذا الشر قوية. وأن الاسم الذي يمنحه للشر هو اسم بديل يعطينا إياه الخوف من أسماء أخرى. «نابليون». يشعر «كلايست» كيف

تتضخم الكلمة الشنيعة، وتمتص كل كراهيته، وغيظه، واحتقاره لذاته. ويشعر أيضًا ـ ولكن لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيًا ـ بأن كل التيارات العكرة لروحه تنجذب لهذا الاسم، وتنجرف بشراهة في اتجاهه، كالمكان المُعد لها .

لم يتمكن قَطُّ من إخبار أي أحد، وهو نفسه لا يعرف، ولا يريد أن يعرف، كيف أنه ابتعد عن ساحل فرنسا القاحل في شهر نوفمبر ـ حيث إن الكورسيكي اللعين لم يؤدِّ المعروف الوحيد للراغب في الموت، وتخلى عن خططه، ولم يرسل أسطوله إلى إنجلترا، وبالتالي لم يهيِّئ لليائس ساحة المعركة المنشودة ـ وكيف أنه رجع إلى باريس، وبأوامر صارمة من المبعوث البروسيِّ، اتجه إلى بوتسدام ووصل في طريقه حتى ماينتس .

ـ آلة مهترئة، مرقَّعة ظاهريًّا، ولا تعطي أي صوت . لا يجدي كسرها، ولا حتى المحافظة عليها. حالة مواتية، أيها الطبيب، بلا أمل، بلا التزام. الأنسب .

. «كلايست»؟

ـ مرة واحدة في حياتي، يا حضرة المستشار، أود أن أقابل الإنسان الذي سيسمح لي، من دون لوم خفي، أن أكون أنا .

. كيف يمكن لمَن لا يستطيع التعامل مع الموجود أن يجد طريقه؟

أعطت الطبيعة بعض الناس الحماية ضد كل ما يزيد عن حده. يصدون الأعمال والأفكار المبالغ فيها. يفكر «كلايست»، ليس من دون بعض الرضا، في تلك اللحظة التي جفل الطبيب فيها أمامه كأنه الشيطان. هو، الرجل الذي أفضل ما لديه هو الفضول المهني، سأل «كلايست» عما يشعر به الشخص الذي يحرق أغلى أوراقه. من دون تردد، وبتعبير وصفه الطبيب لاحقًا بـ«الحماسي»، أجاب «كلايست »:

. الآن أصبح اللاشيء مفتوحًا أمامي .

عندها قطع المستشار الحديث. وتخلى عن محاولة فهم مريضه.

والمريض ناسبه ذلك. سافر إلى فيزبادن في كثير من الأحيان، ومكث هناك في بيت القسيس لأيام وليالٍ عدة، وتحمل أن يلقاه «فيديكيند» من بعدها بنظرات ماكرة، وأيضًا أن يُسمعه كلامًا عن قوة الشفاء التي لا تضاهي الآتية من النساء. لقد رأى: «ماريانه»، ابنة القس، الطفلة الساذجة، لم تكن تجرؤ حتى على التفكير فيما اعتبره الآخرون أمرًا مسلمًا به. كان «كلايست» يجول معها في ضواحي المدينة ويخبرها عن أسفاره. وقد ردَّ بهزة رأس على النظرة القلقة للقس، الرجل الذكي. كان يسعده أن يأتي ويذهب كما يشاء، وأن لا أحد يدعي أي حقوق عليه. لكن تغيرًا طفيفًا في سلوك الفتاة، وعلامات إعجاب، أشارت له أنه لم يعد يستطيع التحرك بالقرب منها من دون أن يوقظ التوقعات. الأغنية القديمة نفسها .

. سأرحل، يا حضرة المستشار. في وقت قريب .

. بالتأكيد، يا «كلايست»، سيكون هذا هو الصحيح. لكن هذا ليس سببًا للحزن .

يقول «كلايست» إنه يريد أن يخبره حكاية رمزية تتعلق . على ألا يلومه على ذلك . بكلبه. هذا إذا لم يجد من غير المناسب أن يغيب عن بقية المجموعة لتلك الفترة الطويلة .

السخرية الخالصة. لا أحد يهتم بهما. هؤلاء يعرف بعضهم بعضًا منذ وقت طويل، ويتوقون إلى مواصلة محادثاتهم التي تكون دائـمًا نفسـها، ويـهتمون سـطحيًا فقـط بشـؤون شـخص غـريب. «جوندروده» تمسكت أخيرًا بـ«سافينيي»، وتشعر كما لو ما زالت كلمة حاسمة يجب أن تُقال هذا المساء. على الرغم من أنها تعلم أن القرارات اتُّخذت منذ فترة طويلة. ظلت هناك بقايا مسمومة. احتياج لرد الاعتبار؟ محاولة أخيرة ليُصبح المرء مفهومًا إلى أعمق نقطة؟ إنها تريد أن تبدو ساحرة .

. لنيل رضاك، يا «سافينيي»، لا يكفي أن أكون متميزة. وإلا يجب أن تكون واقعًا في غرامي بشكل رهيب، وهو ما لا أظنه. أضع كل كمالي عند قدميك بتواضع، لكنك تخطو عليه كما لو أنه حصى.

قل لي مع ذلك، كيف يمكن للمرء كسب حبك .

. ألم أحذركِ، يا «جوندرودشن»، من ارتداء ساعة ذهبية معينة في سلسلة حول رقبتكِ مرة أخرى في وجودي؟ وماذا أرى؟ أنتِ تفعلين ذلك بالفعل .

. لأنني أعرف، يا «سافينيي»، أن لا ساعة ذهبية صغيرة ولا شيء في «جوندروده» يمكن أن يصبح خطرًا عليك. لكن أخبرني إذا كانت الشفرة السرية التي حكتها لك في الفانيلا بعد يوم زفافك تعمل أم لا .

. تريدين أن تعرفي كيف يمكن للمرء كسب حبي. لكنك تعرفين بنفسكِ ما هو ضروري فضلًا عن التميز: التوازن الصحيح بين الاستقلال والخضوع .

. اعتقدت، يا «سافينيي»، أني سأسمع منك شيئًا أكثر أصالة .

. إذن فأنتِ لا تستمعين بشكل صحيح، يا «جوندرودشن»، وألاحظ ذلك من خلال نبرة صوتك. كثيرًا ما اشتكيت لكِ من عدم ثقتك، واستقلالكِ المتعاظم .

ـ أنت ودود للغاية. تقول «متعاظم»، كي لا تقول «مبالغ فيه». أيضًا، أنك منعتني صراحة أن أرفع الكلفة بالتحدث إليك: كان ذا معنى، وذا مغزى كبير. كان شيء لا يزال ناقصًا. أما هذا فجعل الأمر كلًّا متكاملًا. لكنني لا أشتكي . الذي يخطئ في تقييم الآخر، يكون هو صاحب الخطأ الأكبر .

«خارجة عن السيطرة » ، «غير متوقعة»، «لا تقف عند حدود»، «متعاظمة». آه يا «سافينيي ». لم يكن الأمر سوى قصيدة، نعم، أعترف، لقد كانت حركة متسرعة للغاية، وغير محكمة. «القُبلة في الحلم». لم يكن الأمر ليهمك، قبل أسبوعين من زفافك. «لقد نفخَت قُبلةٌ فيّ الحياةَ...» وكان عليّ أن أضيف (لم أعد أعرف نفسي حينها): «حقيقةً». مثل هذه الأشياء تحلم بها «جوندرودشن»، وبمن؟ بشخص ودود جدًا ويحبه الآخرون دائمًا

آه يا «سافينيي». لا يستطيع الإنسان أكثر من أن يخجل، كان يمكنك أن تصمت. كان يجب أن تصبح ساكتًا أمام الألم، الذي هو حقيقي تمامًا، كان يجب أن تشعر بذلك . وبأن قيودًا صارمة كانت تقيدني. الآن فكرتُ: «كانت ».

يا «سافينيي»! الآن فكرت في أن ذلك «كان ».

. حسنًا والآن؟ ما الذي يفرحكِ إلى هذا الحد في الموضوع؟ هل للمرء أن يعرف ذلك؟

. لا، يا «سافينيي». ليس للمرء أن يعرف ذلك. لا يحتاج المرء إلى معرفة كل شيء على الإطلاق، المهم أنني أنا أعرف. ولكن تحضرني قصة صغيرة هنا، يجب أن أخبرك بها. قبل بضع سنوات كنت أقف مع شاب ما في الشرفة في «حديقة ليونارد»، كنا وحدنا، وكنت أتمنى أن أتحدث معه، لكن قدْرًا معينًا من التوتر، وربما حتى خفقان القلب، منعني. ظل الشاب صامتًا لفترة، وأخيرًا، ربما لأنه اعتقد أن الصمت الطويل غير لائق، سألني: «كيف حال أخوكِ؟ هل ما زال في هاناو؟». ترك لديَّ هذا السؤال انطباعًا غير مريح إطلاقًا، أعطاني إحساسًا لا أستطيع أن أتحمله. قُل بنفسك، ألم يكن ممكنًا لذلك الشاب أن يسأل شيئًا مناسبًا أكثر من ذلك بكثير؟

هذا صحيح، صديقي العزيز. هذا ما استحقه «سافينيي». اجعلي «سافينيي» الغبي يدفع ثمن غبائه .

ـ إنكم لا ترون دائمًا سوى أنفسكم فقط. كم هو مجددًا شرير، وساخر، ومقزز، الصديق، أليس كذلك؟ بدلًا من أن يكون لطيفًا وودودًا. كل ما أردت أن أقوله هو: أعرف الآن لماذا كان علينا أن يتجاوز بعضنا بعضًا مثل كلبين شابين أعميين، وكنت أود أن تعرف ذلك أيضًا .

ألم تتسكع دائمًا قليلًا، صديقي العزيز؟ أيضًا في الصداقة؟

ألا يظهر السؤال، يا عزيزي «سافينيي»، أنك لم تعرف أي شيء عن صديقتك، أختك، «جوندرودشن»، كل هذا الوقت؟ أن طبيعتي

كانت غريبة بالنسبة إليك، لأنها تطرح عليك الألغاز؟ أنك لم تُرد أن تبذل المجهود لمعرفة ما يمكنك أن تصدق: ما تراه بعينيك، أم الشائعات التي صورتني حينًا على أني لعوب، وحينًا محتشمة، تارة كروح ذكورية قوية، وتارة كنموذج الأنوثة اللطيفة؟ وأنك غير قادر على أن ترى وجه الصديق الحقيقي وراء كل تلك الوجوه؟

زيدي في شتمه، يا «جوندرودشن»، فـ«سافينيي» استحق ذلك .

.على محمل الجد، يا صديقي العزيز. لقد أعرض قلبي عنك: الآن يخطر لي أن هذا كل ما أريد أن أقوله لك طوال الوقت، وترى بنفسك كيف أني لا أصبح شاحبةً. لديَّ الكثير لأقوم به، يا «سافينيي». أجعل أحدهم يقرأ عليَّ «تاريخ سويسرا» لـ«مولر»، وأدرس «شلينج» باجتهاد كبير، وأكتب . لا يمكنني أن أقولها لك إلا بحياء كبير. مسرحية، وروحي كلها منشغلة بها. أستغرق فيها بكل فكري، وأسكن تفاصيلها لدرجة أن حياتي الخاصة تصبح غريبة عني: أتسمع، يا «سافينيي » ، لا أعرف لنفسي شيئًا أفضل. تقول «جوندا» إنه من الغباء أن يترك المرء فنًّا صغيرًا مثل فني يتحكم فيه إلى هذه الدرجة. لكني أحب هذا الخطأ، إن كان هذا خطأً. فإنه غالبًا ما يعوِّض عليَّ العالم كله. ويساعدني على أن أؤمن بضرورة كل الأشياء، وبضرورة طبيعتي الخاصة أيضًا، مهما كانت مثيرة للجدل. خلاف ذلك لم أكن أعيش، يا عزيزي «سافينيي»، كان عليَّ أن أخبرك بذلك مرة. والآن لن يكون هناك أي حديث بيننا مرة أخرى عن هذا الأمر .

يا له من خطاب طويل، يا صديقي العزيز. لن ينساه «سافينيي ».

يرى «كلايست» بطرف عينيه كيف ينهض الاثنان. يعتقد أنه يلمح في وجه «سافينيي» حركة غير متوقعة، وفي ملامح «جوندروده» عزمًا غير متوقع. ينحني «سافينيي» على يدها لفترة طويلة، ثم يفترقان بسرعة، هي تذهب إلى «بتينه» التي انتظرتها عند النافذة، وهو إلى مجموعة الرجال، التي بدأت . من قَبيل الأدب أو بسبب الاهتمام . تحيط بـ«كلايست ».

انتصفت الساعة الخامسة .

«فيديكيند»، السعيد بالتأكيد لتخلصه من الوجود الشاق وحده مع محميِّه، يُسلي المجموعة، بعد استئذان «كلايست»، بأن يخبرها عن مشاهدة طريقة عاينها الأخير عن كلبه . كلب «فيديكيند». «بيلو» حيوان مسالم ووفي، أصبح منذ أيام «كلايست» الأولى فـي المنزل صديقًا للضيف الجديد، وصار يرافقه بعد ذلك في نزهاته الطويلة. في إحدى المرات رأى «كلايست» الكلب، الذي طالما أبدى بهجة في الطاعة، وهو في وضع بين أمرين تلقاهما، وبدا كل منهما ملزمًا له: من ناحية نادته زوجة «فيديكيند» من نافذة المطبخ حتى يراقب، كما يفعل في كثير من الأحيان، ابنة المستشار الصغرى؛ ومـن ناحيـة أخرى صفَّر له «كلايست» من الشارع ليذهب معه في نزهة. وما كان من الكلب الذي لم يحسم أمره إلا أن ركض ذهابًا وإيابًا بين نافذة المطبخ والبوابة، وبدا على وجهه، كما يؤكد «كلايست»، تعبير تعيس. لم يحرره أيٌّ من «كلايست» وزوجة المستشار من الأمر المعطى له، من أجل إتمام التجربة. من الواضح أن الصراع أنهك الكلب. غطى عينيه ذلك الغشاء الرقيق الذي يشير إلى التعب عند الكلاب، وغلبه نعاس لا يقـاوم، فـألقى بنفسـه تمـامًا فـي الوسـط بـين زوجـة المسـتشار و«كلايست» ونام على الفور .

يُبدون دهشتهم، ويضحكون، ويصفقون له. يضيف «كلايست»، الذي اتجهت نحوه كل الأعين :

. نعم، أنا وزوجة المستشار لم نستطع إلا أن نضحك من قلبينا على التصرف الغريب للحيوان. وبعد ذلك فقط، عندما فكرت في الأمر، قلت لنفسي: الكلب المسكين .

وبينما يناقش الرجال ما حدث، يفكر: كيف لو استطاع المرء النوم طوال حياته؟ !

لكن على «فيديكيند»، يا للأسف، أن يُبدي ملاحظة غير مناسبة. يقول مبتسمًا إن السيد «فون كلايست» ظاهريًّا يشعر إلى حد ما بأنه في وضع كلبه الطيب «بيلو»؟

فيسألونه بأي معنى يقصد ذلك .

يرغب «كلايست» بشدة لو كان قد صمت. خروج المرء من نفسه له دائمًا عواقب وخيمة. يقول بأكبر قدر ممكن من الاقتضاب إن المقارنة مع الحيوان هي مزحة، على الرغم من أن تشابه وضعه مع بعض المواقف التي لا يمكن حلها في حياة الإنسان أمر واضح .

«ميرتن»، المضيف، يسأل :

.على سبيل المثال؟

يشعر بالإطراء لأن مثل هذه المناقشات العميقة تجري في منزله .

من يسأل، يجب أن يحصل على جواب. يقول «كلايست »:

.على سبيل المثال، الحالة الآتية: يشعر أحدهم، سواء صوابًا أو خطأ، بدافع لاتباع غاية ما؛ وظروفه المالية لا تسمح له بالعيش في الخارج والسعي وراء تحقيق نياته بحرية، ولا بالبقاء في وطنه من دون قبول منصب وظيفي. لكن هذا المنصب، الذي يجب أن يهين نفسه بشكل لا يطاق حتى يحصل عليه، سيتعارض مع غايته بكل معنى الكلمة. حسنًا. ها هو الآن المثال الذي طلبته .

يسود الصمت. «ميرتن»، الذي يعترف بصدق بأنه قرأ مسرحية «كلايست»، «عائلة شروفنشتاين»، والذي لا يتصور كم يعذِّب المؤلف بهذا الاعتراف، يسأل أخيرًا إن لم يكن بإمكان السيد «فون كلايست» أن يؤمِّن لنفسه معيشة متواضعة عن طريق بيع إنتاجه الأدبي .

يصيح «كلايست» بحدة غير متوقعة :

. أن أكتب الكتب مقابل المال؟ آه، لا شيء من هذا! هل قاومتُ أغراضًا غريبة في مجال بعيد عني وغير مهم بالنسبة إليّ، وهو المجال العسكري، حتى أخضع للأغراض الغريبة في أقرب

المجالات إليّ؟

يا إلهي، لمن أقول ذلك؟

يعيش «كلايست» لحظة من لحظات الوضوح الحزين تلك، حيث يرى الفكرة وراء كل تعبير وجه، والمعنى وراء كل كلمة، والسبب وراء كل فعل؛ حيث يقف كل شيء، وخصوصًا هو نفسه، في عري بائس، وحيث يتسلل إليه اشمئزاز، وتقفز الكلمات من فمه وأفواه الآخرين مثل الضفادع. يمسه على نحو غريب ما يصله من كلام «جوندروده»، التي جلست مع «بتينه» على أريكة عند النافذة: القصائد هي بلسم لما لا يمكن إشباعه في الحياة. غريب، كيف تبدو هذه المرأة، حتى عندما تتحدث مع الآخرين، وكأنها تعنيه هو، وكيف تبدو له الوحيدة الحقيقية بين مجموعة من المقنَّعين .

عندها يقول «برنتانو» بلهجة جادة للغاية تولد انطباعًا طيبًا عنه لدى «كلايست »:

ـ أنت على حق، يا «كلايست». في أيامنا هذه لا يمكن للمرء نظم القصائد. يمكنه فقط القيام بشيء ما من أجل الشعر. يعيش الشاعر كأنه في صحراء، تهاجمه الحيوانات البرية لأنه لا يستطيع أن يزيل وحشيتها كلها بالغناء، وترقص القرود وهي تقلده .

ويجيبه «كلايست»، أيضًا بجدية، من دون أي تفكير :

ـ تزداد الحياة تعقيدًا باستمرار والثقة صعوبة .

يتوقف الحديث فترة، من دون حرج. يرى «كلايست» أن «جوندروده» استمعت إليهم من مكانها، ويعجبه ذلك . لا تنقصه مهارة التحدث بشكل غير مباشر مع شخص آخر. يريد الآن أن يغلمهم. يقول إنه أكثر من مرة صمم بعزم على عدم العودة إلى موطنه الأصلي بروسيا .

لا يسألونه لماذا. ملكة الخيال لديهم لا تكفي لطرح الأسئلة

الصحيحة. هو يعرف ذلك. الجباه التي ليس لديها أي فكرة. ما الذي يمكن أن يدفع شابًا بروسيًا نبيلًا من عائلة عريقة بعيدًا عن بلاده؟ التي هو متعلق بها، كما يقولها الآن بنفسه على مضض؛ والتي ـ قبل سنوات قليلة ـ ضحى بشبابه من أجلها بسعادة، وهو أمر بالكاد سيفهمه هؤلاء السادة الآن، لأنهم معتادون على أن يعيشوا في حدود متغيرة، ويحكمهم حكام متغيرون وقريبًا، على ما يبدو، غرباء. هو، في المقابل ـ تأتيه الفكرة للمرة الأولى ـ لم يعِش في دولة حقيقية، بل في فكرته عن الدولة. يريد متابعة التفكير في القضية وعواقبها لاحقًا .

يقول إنه عندما عبر الحدود للمرة الأولى، شعر كيف بدا وطنه أفضل وأفضل كلما ابتعد عنه؛ كيف تراجع تدريجيًا ضغط التزام فرضه على نفسه ولم يمكنه الوفاء به تجاه هذا البلد؛ وكيف أشعره ذلك بالارتياح، إلى حد أنه استطاع النوم مجددًا وغمره إقبال جديد على الحياة. يرى فورتسبورج أمامه، ودرسدن، وتسوريخ، والجزيرة الصغيرة في بحيرة ثون، وحتى فايمار؛ أوقات الحرية الداخلية التي يختبرها لن تتكرر في برلين .

يقول إنه فجأة استطاع التفكير، بما لم يحسبه قَطُّ ممكنًا: أن عليه أن يقطف زهرة السعادة أينما توفرت له. وهكذا أصبح مصممًا على البحث عن وطن جديد، ولن ينسى أبدًا تلك الليلة ...

يتوقف، ويجافيه الكلام. كأن عضو الكلام لدى الرجل عرقل نفسه، هكذا تفكر «جوندروده»، حتى يمنعه من أن يفصح عما في داخله للآخرين أكثر مما هو جيد له. حماسة زائدة، تسيطر على نفسها بنفسها. ماذا يجب على الإنسان أن يتحمل؟ تشعر باهتمام تجاهه، وليس بتعاطف معه. بخلاف ذلك فإنه من السهل جدًا رؤية الأشخاص من الداخل وفهمهم، وهو ما يُشعرها بالملل منهم .

يفكر «كلايست»: كانت الليلة في ديسمبر، عندما جئت إلى سويسرا ووطئت أرض وطني الجديد. ظل المطر يتساقط طويلًا، برتابة وهدوء. بحثت عن النجوم في الغيوم. القريب والبعيد،

كان كل شيء مظلمًا جدًا. بدا الأمر لي مثل الدخول إلى حياة أخرى .

لا يحثونه على متابعة الحكي بل ينتظرون. لكن المستشار، الذي بدا له الصمت طويلًا بما فيه الكفاية، يسأل بهدوء :

ـ و...؟

يجيب «كلايست» في لهجة قاطعة :

ـ و...؟ ألا تستطيع تصور ذلك بنفسك؟ لم أجد في أي مكان إطلاقًا ما كنت أبحث عنه .

ـ وما هو ذلك؟

يسأله «ميرتن»، الذي لا يترك أحدًا وشأنه .

يسكت «كلايست ».

يقول «ميرتن» حسنًا، إنه يعتقد أنه يفهم. ولكن كيف يمكن لفرد يبتعد بنفسه عن الحشود أن يفرض أهدافه غير العادية على دولة، وأن يعرض مطالبه المتطرفة على حياة منظومة جماعية يجب أن تنصف الجميع: الفلاح والتاجر والمحامي والشاعر؟

وكأنه لم يفكر في ذلك من أعماق نفسه! يقول بعنف :

ـ جيد! فلترفض الدولة مطالبي، وتلفظني. لو أمكنها فقط أن تقنعني أنها تنصف الفلاح والتاجر، وأنها لا تجبرنا جميعًا على التضحية بأهدافنا العليا لمصلحتها. «الحشد»، هكذا يسمى. هل يجب عليّ أن أوائم أهدافي ووجهات نظري بشكل مصطنع لتناسب تلك الخاصة بهم؟ وقبل كل شيء: ما الذي سيكون مناسبًا لهم حقًا، ما زال السؤال قائمًا. ولكن لا أحد يطرحه. ليس في بروسيا .

يصيح «سافينيي» قائلًا :

ـ يا رجل، «كلايست»! إلى أين أنت ذاهب بأفكارك تلك؟

يقول «كلايست »:

. نعم، هذا صحيح. بعضٌ مما يعتبره الناس ذا قيمة ليس كذلك بالنسبة إليّ. وكثيرٌ مما يبدو لهم حقيرًا ليس كذلك أيضًا بالنسبة إليّ. أحمل قانونًا داخليًا في صدري، وكل القوانين الخارجية لا تساوي شيئًا في مقابله، حتى لو وقَّع عليها ملكٌ .

يصيح «سافينيي »:

. يا ابن آدم! أنت تردد ذلك وكأنه نظام تدريب عسكري. ألست خائفًا؟ أليس لديك أي قلق؟

لا شيء يقال عن ذلك. الخوف. لو تعرف يا عزيزي: خوف لا يوصف. في بعض الأحيان أعتقد أنني في العالم لأجد وصفًا لهذا الخوف. وهو بالفعل قريب مني، قريب جدًّا. لا بد لي من أن أترصد له في نفسي . يا للوجوه، عندما أقول لهم إن قدري هو أن ألهث وراء نفسي، مثل كلب المستشار الأبله وهو ينهش ذيله! وأن الناس فقط لا يستطيعون أبدًا تقبل الشخص التعيس على أنه كذلك .

على «ميرتن» أن يعلق. إن السيد «فون كلايست» يريد، إنْ فهمه عن حق، التعبيرَ عن شعوره بأنه غير قادر على الاندماج في أي علاقة تقليدية في هذا العالم .

تعب «كلايست» من الثرثرة. يقول إنه، بالتأكيد، يجد أن كثيرًا من مؤسسات هذا العالم لا تناسب تفكيره إلى حد أنه تستحيل عليه المساهمة في الحفاظ عليها وتطويرها. يسأله «فيديكيند» ما إذا لم تكن لديه أي فرصة للتوظيف في بروسيا في اللجنة التقنية للصناعة .

. لدى الوزير «شترونزيه»، نعم. وهو لم يكن غير متقبل لي. ولكن هل تعرف في الحقيقة كيف أن النظام التجاري البروسي بأكمله عسكريٌّ؟ عندما تحدث معي الوزير، الذي كنت على وشك الخدمة لديه، حول تأثير آلة، لم يعنِ الجانب الرياضي مثلًا، الذي كان ممكنًا أن أتحدث معه بشأنه. لا» بـ«تأثير الآلة» لم يفهم سوى

الأموال التي تجلبها !

لا يسع «جوزيف ميرتن» سوى أن يضحك :

. لكن يا عزيزي، التأثير الرياضي للآلة ليس مثيرًا للاهتمام إلا بما ينتج عنه من تأثير اقتصادي .

هل أنا مجنون؟ هل هم المجانين؟ سيحدث أن يضحك الأطفال في الشارع من جهلي بالعالم. بالفعل لم أعد أتجرأ على أن أنطق بكلمة مثل «الحقيقة ».

. إذا كانت المسألة كما تقول، لماذا تبذر الدولة ملايين على جميع هذه المؤسسات لنشر التعليم؟ هل تهتم بالحقيقة؟ الدولة؟ لا تعرف الدولة أي ميزة أخرى غير تلك التي يمكنها حسابها بالنسبة المئوية. إنها تريد معرفة الحقيقة فقط بقدر ما يمكنها استخدامها. تريد تطبيقها. ولكن على ماذا؟ على الفنون والحرف. لكن الفنون لا يمكن تطويعها مثل الخطوات العسكرية. إن لم تساعد الفنون والعلوم نفسها بنفسها، فلن يساعدها أي ملك. كل ما تتمناه الفنون والعلوم هو ألا يزعج مسيرتها الملوك .

يقول «برنتانو»، مصدومًا :

. ما هذه الآراء، يا «كلايست»! إلى من تريد أن توكلها إذن في «برلينك»؟

يقول «كلايست »:

. ليس إلى أحد. ولا أي إنسان. لأنني لا أحسن فهم المكر والدهاء، تعلمت أن أصمت. الصمت فن صعب، ولكنه مجزٍ. أنصحك أن تتدرب عليه. الرجل من كورسيكا يقف عند الباب .

إنها ملاحظة في غير محلها؛ لا يجب أن ينبعث الخوف. يتدخل المستشار في الكلام :

. إذن لم يبقَ لك شيء، يا «كلايست»، إلا الزواج بامرأة ثرية !

. أنت تقولها، ولكن لحظي السيئ» فإن أرستقراطية براندنبورغ

أصبحت فقيرة إلى حد كبير. ماذا أفعل؟ ألعب النرد لأرى: فرنسا أم بروسيا. وظيفةٌ أم الأدب . مذلة ودخل متواضع أم فقر صِرْف واحترام غير مخدوش للذات .

لا يمكن أخذ ذلك على محمل الجد. يضحكون، ويتحركون ويذهبون إلى النساء. يمسك «سافينيي» بذراع «كلايست» ويقول :

. لا أريد أن أقتحم خصوصيتك يا «كلايست»، ولكن يبدو لي أنك ترى وضعك ميؤوسًا منه بالقدر الذي تحتاجه لكي يحبطك ذلك .

شهوة العذاب؟ هذا ما كان ينقصه. لو يعرفون كم يتوق إلى الفرح، وكم يود أن يعيش بين أناس فرحين كواحد منهم، ويمارس عملًا يؤمِّن له المعيشة ولا يدمره في الوقت نفسه. لكن كيف يمكن لهذا الإنسان أن يعرف أن هذه السعادة البسيطة ليست متاحة له في عالم الله كله؟

يقول لـ«سافينيي »:

. دعنا من ذلك. لا تلُمني على سلوكي. يعلم الله، وأنا . صدقني . أعلم أيضًا، أنه، في كثير من الأحيان، لا يبقى للإنسان سوى فعل الخطأ، سواء ضد الآخرين أو ضد نفسه، وأن على المرء أن يتقبل تسمية هذا بـ«نظام العالم ».

في الضوء المعتدل لفترة بعد الظهر الذي يسقط عبر النوافذ، يجتمعون حول الطاولة الكبيرة مرة أخرى .

تتوق «جوندروده» إلى الخروج إلى الهواء الطلق، وتود أن تدع الأفكار التي واتتها في محادثتها مع «بتينه » تنمو داخلها بهدوء، ولكن «ليزيته» تجذبها جانبًا؛ «ليزيته»، الذكية، المتعلمة، بلغاتها الرومانسية، ودراساتها في علم النبات، وميلها إلى الشعر، وبهذه النظرة التي لا تتعلق إلا بزوجها، «نيس فون إيزنبك » ، الرجل النحيل المرح الذي تسبب صحته الهشة لزوجته قلقًا مستمرًا وتأنيب ضمير شديدًا .

تقول لـ«جوندروده» بصراحة إنها تجد من غير المقبول أن تتبادل مع «بتينه» الأسرار الخاصة أمام أعين الناظرين بهذا الشكل .

ـ غيرة؟ دموع؟ «ليزيته»! إن كنت أعتبر امرأة واحدة سعيدة، فهذه كانت أنتِ .

تصر «ليزيته» على أن هذا صحيح فيما يتعلق بـ«نيس». ولكن من الصحيح أيضًا أن العلاقات البرجوازية يجب أن تجعل المرأة غير سعيدة. العواطف المكبوتة ...

هذه الكلمة؟ تندهش «جوندروده». إنهما لا تعرفان بعضهما بعضًا .

تلومها «ليزيته» لأنها نسيت كل ما كان بينهما يومًا. كيف كانتا كثيرًا ما تجلسان معًا بألفة في المساء، في غرفة «جوندروده» في الـدير؛ كـيف فـرت هـي، «ليزيتـه»، مـن زائـر لا تـهتم لأمـره، ثـم انتظرتها عند البوابة الخلفية للدير :

. كما لو كنتُ حبيبك، يا «لينا»، وكانت بيننا علاقة حميمية. كيف قـبَّل بعضـنا بعضًا عنـدما خـرجتِ. كان الظلام شديدًا باستثناء الهلال الصغير في الأفق، والجو يعبق برائحة الياسمين .

«جوندروده» لا تتذكر، لكنها تصمت. كما لو أن السنوات شفافة، ترى «ليزيته» الشابة و«ليزيته» الناضجة تقفان جنبًا إلى جنب، ولا تعرف إحداهما شيئًا عن الأخرى. لا يمكن إيقاف التغيير، وأنا . هكذا تفكر. لا أرغب أن أعيشه .

وتنتـهي لحظـة الألفـة. يجـب علـى «ليزيتـه»، حتـى فـي الدائرة الضـيقة، أن تُـبـرز مكانتـها كـامرأة متزوجـة. تبـالغ فـي اهتمامـها بـ«نيس»، وتطلب إغلاق النافذة، لأنه لا يحتمل التيار الهوائي. إنه نــوع مــن الانتقـام، عنـدما لا تسـتطيع المـرأة أن تحقـق نفسـها، فتجعــل مــن زوجـها طفـلًا لـها. تفكـر «جونـدروده»: لا أسـتطيع التحـدث معـها حـول هـذا الموضـوع، فقـد مضـى عـهد الانفتـاح السـابق بيننـا. هـي أيـضًا سـوف تنظـر إلـيَّ قـريبًا علـى أننـي متغطرسة .

إنها عادة سيئة، أن نُقيِّم الأصدقاء بنظرات الوداع؛ والأسوأ منها، أن يكون علينا تخيل ما سيقوله بعضهم لبعض عن موتنا القريب .

الغطرسة. تعرف «جوندروده» في أعماقها، حيث لا تتسامح مع نفسها، أن الاتهام ليس بتلك السخافة، حتى لو أنه، كما الاتهامات في معظم الأحيان، لا يدرك الجوهر. متغطرسة: هي فعلًا كذلك. حين جلست قبل قليل مع «بتينه» عند النافذة، وحدثتها الأخيرة بحيويـة عـن عقليـة انعـدام المعنـى أو التفاهـة، أدركـت كم هي تحتـاج إلـى هـذه العقليـة، وكم تحتـاج إلـى هـذه الصـديقة، حتـى تتخلص كل مرة مجددًا من ذلك الشعور الخفي بالتفوق الذي لطالما فصلها عن الآخرين. تفاهة! «بتينه» لا تعرف كيف شغلتها

الكلمة بعد أن ظهرت لأول مرة في إحدى رسائلها. الآن تقول، بجسارة مرحة وليس من دون شعور بالانتصار، لـ«ليزيته» والآنستين الشابتين «سيرفيير»، ولـ«جوندا» و«صوفي»، إن «جوندروده» تريد أن تصبح تلميذتها في التفاهة. لقد تعاهدتا على ذلك. إنه سر بينهما، وهي لن تقول أكثر من ذلك .

يبدأن في تأنيب «بتينه»: ما ستنجزه، هو أنها ستعرقل مسار «جوندروده» في دراستها المنهجية للعلوم، بدلًا من أن تنخرط هي، أي «بتينه»، أخيرًا في تربية فعلية لعقلها. تكشر «بتينه» عن أسنانها وبالكاد تدافع عن نفسها. أما «جوندروده» فلا تزال متعلقة بالكلمة. كيف تتسلل إلى داخل خيالاتها السرية عن المعنى، التي تكاد لا تعترف بها لنفسها. كيف تساعدها على تمزيق الشبكة التي تحجبها عن نفسها. سوف تنشر قصائدها الجديدة ومحاولاتها المسرحية تحت اسم آخر، وتتبع ميلها في ألا تُعرف. إنها تشعر بوضوح شديد كيف أن توقعات الجمهور تسلب منها عفويتها. وفي المقابل كم من الأمور تصبح سهلة وطبيعية، وكم تقترب هي أكثر من الناس، عندما لا تريد أن تكون مهمة .

أعطاها وقت بعد الظهر ما كان ممكنًا أن يعطيه. تريد أن تغادر .

يعرف «كلايست» هذه الدوائر التي تجتمع فقط لكي يؤكد أعضاؤها آراء بعضهم بعضًا. حول تعَلم المرأة، لديه رأي راسخ ومبرر، كما يعتقد، وقد أتيحت له الفرصة لاختباره مع أخواته والنساء في بيت آل «تسنجه ». شهوة التدريس، لقد استمتع بها عن آخرها: هل يُسمح للإنسان بأن يفعل كل ما هو صواب، أم أن عليه أن يكتفي بحقيقة أن كل ما يفعله هو الصواب فقط؟

مهمة للتفكير. يا للسماء! ألم يسمع وقتها ضحكة خفية وراء ظهره؟

ماذا الآن؟ «كليمنس برنتانو» يستعد حقًّا لقراءة قصيدة، و«جوندروده»، التي سيكون ذلك على حسابها، لا تستطيع أن تثنيه عنها. يريد الرجل استخدام أبياتها الشعرية كدليل ضدها. يدعو المجموعة لتشهد أن الشاعرة «تيان» قد أدانت نفسها بتقلب

المشاعر .

إنه حوار بين شخصين في شكل شعري، ويبدو أن معظم الناس هنا يعرفون ذلك. شخصية تُدعى «فيوليتا» تتهم شخصًا آخر، مُسمى على نحو ملائم «نرجس»، بعدم إخلاصه في الحب؛ فيجيب «نرجس »:

ليس الإخلاص لي ما تسمونه إخلاصًا،

ولا الخيانة ما تسمونها خيانة !

من يشارك لحظة الحياة العليا،

ولا ينسى أن يعيش مستمتعًا بالحب،

ومع ذلك يحكم ويحسب ويدبر

هذا من أسميه خائنًا، ولا أثق فيه،

وعيه البارد سوف يراك على حقيقتك

وسيحكم كالقاضي على نسيانك نفسك .

لكن أنا مخلص! متحقق في كل شيء،

ومن أهبه نفسي في خضم الحب،

فسيصبح كل شيء، سيكون كل كياني .

انقلبت التلاوة ضد «كليمنس»، شعر بذلك بنفسه. تغير الصمت. «كلايست» متنبه بشدة. أنها تتجرأ، أنها تسلم نفسها للناس. هذه المرأة عظيمة بالتأكيد. في حالة الغضب أيضًا هي جميلة .

تقول «جوندروده »:

. «كليمنس»، لا أستطيع فعل أي شيء ضد النقاد المملين. ولكن ماذا أفعل ضد الصديق الذي يؤلمني عن قصد؟

يطلب «كليمنس» منها السماح، ووجهه بحمرة الدم، وقد عاد

أخيرًا إلى نفسه. يبدو أن الحادث قد سوِّي. لم يسبق لـ«كلايست» قَطُّ أن كان بين أناس يتخطون الحدود ضد بعضهم البعض إلى هذه الدرجة من دون أن يصبحوا أعداء. إنه بصيص من الأمل في إمكانية أن تتحقق أحلام معينة من سنوات شبابه، أصبح يخجل منها اليوم: الثقة ليست عبثًا، والحب ليس وهمًا. ولكنه لا يريد أن يضعف. يقول لـ«جوندروده»، التي تصادف أنها تقف بجانبه، إنه يجد أن إعطاءها السطر الأخير من قصيدتها صيغة المستقبل ذو دلالة. تقول :

. نعم، هذا صحيح. أنا شخصيًّا لاحظت ذلك الآن فقط .

بينما كان «كليمنس» يقرأ، انتاب «جوندروده » شعور تعرفه من نزهة على حافة مستنقع، حيث وجدت نفسها على الحشائش الطافية. وفجأة خسفت الأرض تحتها مثل جلد طبل غير مشدود. فرح شديد وفزع شديد، مختلطان. سحبها الأصدقاء، في حالة من الذعر، إلى الأرض الصلبة، ووصفوها بالمتهورة، وقابلت ذلك بالصمت. ليست متهورة، ولكن فضولية، نعم، هذا ما هي عليه، فضولية بشأن اللحظة التي لا تعود فيها الأرض تحت القدمين تحملها. إنه طمع من ذلك النوع العنيد، اليائس، الذي يُحظَّر علينا بحق، بحيث تتلاشى المحظورات العشرة الأخرى أمامه . قتل الأب والأم: شر، ولكنه قابل للتكفير. تدمير النفس: غير طبيعي. عليها أن تغالب ضميرها. والمقاومة تزداد قوة .

آهٍ، لو وجدنا السلام !

إنه أمر مشين، هكذا يفكر «كلايست»، أن ينسحق المرء تحت وطأة زمانه. لماذا، لماذا فقط لا ينبغي أن أكون قادرًا على العيش مع هؤلاء هنا؟

توجد تلك الأيام التي لا تريد أن تنتهي. تدق الساعة الخامسة، ويريدون الذهاب إلى الخارج. يتنفس «كلايست» الصعداء، وبالفعل يأمل في المشي من دون عائق في الهواء الطلق، لكن يتوجب عليه بدلًا من ذلك الخضوع إلى مساءلة «ميرتن». «ميرتن» الذي في الواقع، على الرغم من أنه بالطبع قارئ بسيط،

غير كفء في المجال الأدبي، فإنه لا يستطيع الامتناع عن تحذير المؤلف الشاب من المضي قُدمًا بالطريقة المصطنعة نفسها كما في مسرحيته الأولى .

إنها النبرة التي تُسكت «كلايست». لن يقول إنه نفسه يعتبر «عائلة شروفنشتاين» مسرحية متواضعة. تنبع من عواطف تحكم حياة الناس ولا تهتم بالمنطق .

على «ميرتن» الآن أن يبتسم مرة أخرى. أليست عظمة هذا العصر أنه سيطر على العواطف الدنيئة ورفع العقل إلى موقع السلطة؟ يسأله «كليمنس » إذْ هو يطلب من عمل شعري النظام والوضوح أنفسهما السائدين في دفاتر المحاسبة الخاصة به، فيجيب «ميرتن» بكل براعة :

. لِمَ لا؟ لماذا لا ينبغي أن تنطبق القواعد التي أثبتت صحتها في مجال معين، على مجال آخر؟ يتكلم «كلايست» مرة أخرى، وهو مرغم على مناقشة موضوع من جميع جوانبه الممكنة، قائلًا :

ـ النظام! نعم! منظمٌ هو العالم اليوم. لكن قل لي، هل ما زال جميلًا؟

. هذا يعتمد على مفهوم الجمال .

ليس للرجل متطلبات فقط، بل الرجل محق أيضًا. على عكس كل التوقعات، يمكنه أن يقتبس جملة من مسرحية الضيف المحترم كمثال على الضلال في مفهوم الجمال: «آه! إن اللحظة التي تلي الجريمة هي غالبًا أجمل لحظة في حياة الإنسان». ألا يختبئ في هذا السطر ما يكاد يكون دعوة من الشاعر إلى الجريمة؟

ينظر «كلايست» بتركيز في عينَي التاجر الرماديتين . لا يصدر منهما أي بريق. يبرر، منهكًا، الصيحة المدانة، ويسأل نفسه إن كان دفاعه إلزاميًا. ثم يسمع نفسه يقول :

. الحب هو الذي يلجأ إلى مثل تلك الصور من المواساة ...

البقبقة المتكررة نفسها. لماذا لا يمشي بهدوء وانتباه في هذا

الشارع الضيق، بين المنازل المنخفضة ذات الهياكل نصف الخشبية، التي تجلس أمامها السيدات العجائز، ويثرثرن، ويحِكن. لماذا يريد دائمًا أن يكون على حق؟

تعلن «بتينه» أن التمتع الحر، غير المقيد. لكن ليس غير المسؤول. بالحياة هو القانون الوحيد الذي يمكن للإنسان أن يخضع له !

يعارض «كلايست» بغير ارتياح، معتبرًا أن «لا»، يجب أن يكون المرء قد اجتاز بالفعل العلوم قبل أن يسمح لنفسه بإهانتها .

العلوم؟ التي بدأت تسبك أطواقًا حديدية حول قلوبنا وجباهنا؟ التي تجهز لنا عصرًا حديديًّا، سيقف فيه الفن أمام أبواب مغلقة، ويكون الفنان فيه غريبًا؟

ذلك التوافق مجددًا الآن. لا ينقص الآن إلا أن يقول أحدهم: «التقدم ».

تتولى «ليزيته» المهمة :

. بحث «روسو» الشهير حول ما إذا كان تقدم العلم والفن أثر سلبًا أو إيجابًا على الأخلاق .

نعرف جميعًا كل شيء .

لدى «كلايست» رؤية لعصر يعتمد على الكلام بدلًا من الأفعال. يغمره المنظر الطبيعي، والضوء البارد. وها نحن ما زلنا نجلس ونتداول شعارات القرن الماضي، بانتقادية ومقاومين تعبنا الأكبر، ونعرف: هذا ليس ما نعيش من أجله وما يمكن أن نموت من أجله. ستُسفَك دماؤنا، ولن يخبرونا السبب .

وحشية في «كلايست»، تخيفه وتسعده. يتحدث بخمول كافٍ :

. تفرقت طرق العلم والفن. مسار ثقافتنا اليوم يؤدي إلى توسيع مجال العقل أكثر وأكثر، وتضييق مجال الخيال أكثر وأكثر. يمكن للمرء تقريبًا توقع نهاية الفنون .

يشعر «فيقن فون إيزنبك»، كعالم طبيعي، بأنه مستهدف، فلا

يتحدث بل يعظ :

ـ أعتقد أشد الاعتقاد بأن روح العصر، المتمثلة بتقدم العلوم، ستستمر في الانبعاث فوق شكوى السادة الأدباء، المفهومة ربما ولكنها صادرة عن توهمهم بالمرض. لا تأخذ ذلك على محمل شخصي، عزيزي «كلايست». فيما يخصني، فقد أعطي كل ما لديَّ إن أمكنني، بعد قرن أو قرنين من الآن، أن أعيش في هذا العالم مرة أخرى وأشارك في الظروف الفردوسية التي ستتمتع بها البشرية بفضل تطور العلوم !

يقول «كلايست »:

. يقوم هذا التفكير على خطأ، لكن من السابق لأوانه تحديده. إنك لا تنطلق من سياق الأشياء، بل من تخصصات مستقلة. فهل عليَّ إذن أن أستخدم كل قدراتي وكل قواي وكل هذه الحياة فقط للتعرف على فصيلة حشرات ما، أو لتعيين مكان نبتة ما في سلسلة المخلوقات؟ هل يجب على البشرية المرور عبر هذه الأرض القاحلة للوصول إلى أرض الميعاد؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك. آه، كم هي حزينة هذه الأحادية الهائلة في الرؤية !

. ماذا تقترح؟

يقولها «سافينيي»، الذي طال انتظار صوته. ويتابع :

. إغلاق جميع المختبرات؟ حظر مواصلة تطوير تلك الأدوات التي تخدم مزيدًا من الأبحاث؟ كبح الفضول، وهو أنبل دافع لدينا؟

تقول «جوندروده »:

. لكل شيء لدى «سافينيي» معالجة بصيغة «إما، أو». يجب أن تعرف، يا «كلايست»، أن له عقل ذكر. إنه يعرف نوعًا واحدًا فقط من الفضول: الفضول تجاه ما لا جدال فيه، والمنطقي، والقابل للحل .

المرأة. وكأن لديها فكرة عن التناقض الرهيب الذي يكمن وراءه فسادة الجنس البشري وكأن لديها القوة لا لإنكار الصدع بل

لتحمله .

يصيح «ميرتن »:

. ولكن الشاعر ليس موجودًا ليسلب الناس الأمل !

. والله يا سيد «ميرتن»، أنت على حق. إن الشاعر مكلف بإدارة أوهامنا .

الآن سيعتبرونه ساحرًا مرة أخرى .

. ما هي النقطة التي يؤدي إليها كل شيء؟ لدى الإنسان حاجة لا تقاوَم لتنوير نفسه، لأنه من دون تنوير لا يعدو أن يكون حيوانًا. ولكن بمجرد دخولنا إلى عالم المعرفة، يبدو أن تعويذة شر تقلب استخدامنا لمعارفنا ضدنا. وقد ينتهي بنا المطاف إلى أن نكون مستنيرين أو جاهلين، ولكننا بذلك نكون قد كسبنا بقدر ما فقدنا .

. ماذا تعني؟

يجيب «كلايست» «جوندروده »:

ـ قد يكون الإنسان إذن مثل «إيكسيون»، محكومًا عليه بدفع عجلة إلى أعلى أحد الجبال، وعندما يصل إلى المنتصف يسقط مجددًا في الهاوية. كم هي غير مفهومة تلك الإرادة التي تتحكم في الجنس البشري! هل يمكن أن يطالب الرب هذه الكائنات بتحمل المسؤولية؟

يقول «كلايست»، وقد انفعل جدًّا بسبب تلك المحادثة . كم تنهار سريعًا رباطة جأشه! . للمستشار، بينما الأخير يدق بقبضتيه على جمجمته :

. نعم، نعم، نعم! من الممكن أن يكمن هذا الخطأ هنا. من الممكن أن الطبيعة كانت قاسية بما فيه الكفاية لإفساد عقلي، بحيث تقابل روحي، في كل مسار تسلكه، تكشيرة الجنون. «فيديكيند»، إذا كنتَ طبيبًا، فافتح هذه الجمجمة! ابحث عن موقع الخطأ. خذ مشرطك واستأصل الموضع الفاسد من دون تردد. قد يكون

صحيحًا ما أقرأه في وجوه أسرتي: أنني عبقري مبتلى بالفشل، نوع من أنواع الوحوش. يا دكتور، أنا أتوسل إليك: استأصل مني البَلية بعملية جراحية. لن يكون لديك مريض متعافٍ ممتن لك أكثر مني .

تسمع «جوندروده» «فيديكيند» يقول بصوت غريب :

. يا رجل! ما هذه الأفكار !

فيجيبه «كلايست» وهو هادئ ولكنْ منهك :

. ما يمكن تصوره، ينبغي التفكير فيه. أليس هذا رأيك أيضًا يا سيدي المستشار؟

تنبعث من الأفنية أصوات أعمال بسيطة. ضربات بالفأس، قرقعة دلو. دجاج في الطريق الذي ينفتح في نهاية الشارع على المروج المحاذية للنهر. أرض تحت الأقدام. السماء فوق الكتفين. وعلى خلفيتها، المنازل الصغيرة اللطيفة، الملتصقة تقريبًا بعضها ببعض. مؤامرة الأشياء .

كلام، كلام. «سافينيي». حول الملتبس والجدلي في وجود الشاعر. أنه لا ينبغي عليه أبدًا أن يأخذ نفسه على محمل الجد، لأنه يخترع عالمه الخاص، بما في ذلك أشكال المقاومة. فدائمًا ما يتعلق الأمر بانعكاسات خياله فقط .

يعتقد «كلايست» . ولكنه حريص على عدم النطق بذلك . أن لا أحد ربما من كل هؤلاء هنا مرتبط بالعالم بشكل أوثق منه. المظهر يخدع. عندها تقول «جوندروده»، كما لو كانت تتحدث عنه :

. الأشخاص الذين لا ينخدعون بأنفسهم يستخرجون الجديد من الاضطرابات في كل زمن، وذلك عندما ينطقون به. أشعر كما لو أن العالم لن يستمر، إذا لم يحدث ذلك .

يسأل «سافينيي »:

. أهكذا ترين عمق الزمن كفوهة بركان؟

تقول «جوندروده»:

. تعجبني هذه الصورة .

«كليمنس»، الذي يسير الآن في اتجاه رأس المجموعة، يستدير قائلًا :

ـ حلمت الليلة الماضية بأن «جوته» قد مات. بكيت في الحلم حتى كدت أفقد بصري .

تندلع جلبة، كما لو أن «كليمنس» لم يتحدث عن حلم بل عن حدث حقيقي. وعلى «كلايست» أن يقمع موجة من الغيرة، وكأنه هو فقط من يُسمح له بأن يحلم بـ«جوته». وهو أمر لا يحدث بالمناسبة. وهذا يدهشه حقًّا .

«جوندروده»، التي بقيت بجانبه، قرأت توًّا مسرحية «تاسو» لـ«جوته» مرة أخرى :

أشعر بأن عظامي الأعمق

قد تحطمت، وأعيش لأشعر بهذا .

نعم. هو أيضًا لديه أبيات معينة جاهزة. نِسب الموهبة مقارنة مع الحياة هو موضوع معاصر. ومع ذلك فقد راودته شكوك حول ما إذا كان المؤلف قد تمكن من الوصول إلى التبعات الأخيرة لعلاقات شخصياته الأدبية .

تسأله ماذا يعني .

هو على وشك أن يعترف لتلك المرأة بما لم يقُله لأحد من قبل، وهو يعرف لماذا .

. يزعجني الافتراض أن خلاف «تاسو» مع البلاط يعود إلى سوء فهم. ماذا لو لم يظلم «تاسو» الأميرَ أو «أنطونيو» بصفة خاصة، وإنما يكونان هما من ظلماه؟ لو لم تكن مأساته متخيلة وإنما حقيقية ولا مفر منها؟ لو لم تكن المغالاة، بل شعور حاد . فائق الحدة. بالظروف الحقيقية هو ما انتزع منه الصيحة :

أين أضع خطوتي التالية،

هربًا من الاشمئزاز المحيط بي،

تجنبًا للهاوية أمامي؟

أتبتسمين، يا «جوندروده»؟

. استمر في الحديث .

. عضو مجلس مستشاري الدوق الأكبر، المؤلف، ليس لديه في اعتقادي ميل مُلح إلى المأساة، وأعتقد أنني أعرف السبب .

. إذن قل ما هو .

. إنه مهتم جدًّا بالتوازن. يعتقد أنه يمكن تقسيم القوى المتعارضة الفاعلة في العالم إلى فرعين من العقل، يسميهما «الخير» و«الشر»، ويجب أن يسهما معًا، في نهاية المطاف، في تطور البشرية .

. وأنت يا «كلايست»؟

. أنا؟

يرى «كلايست» فجأة ما يميزه عن الآخر: ما سوف يُخضعه دائمًا، ويحصن الآخر دائمًا ضد أي منازعة .

. لا أستطيع أن أقسم العالم إلى «خير» و«شر»، ولا إلى فرعين من العقل، ولا إلى «سليم» و«مريض». لو أردت أن أقسم العالم، لوجب عليَّ أن أضرب نفسي بالفأس، أن أشطر داخلي، وأقدم النصفين للجمهور المتقزز، حتى يكون لديه سبب للاستهجان: «أين الطهارة؟». نعم، ما لديَّ لأظهره نجسٌ. ليس للقضم والبلع. بل مسبب للهرب، يا «جوندروده ».

بعد بضع خطوات يأخذ عصا جافة ويرسم بحركات سريعة ورشيقة شكلًا في رمال الطريق، شيئًا يشبه بناءً هندسيًّا عبثيًّا، آلية معقدة. يقول إن هذه خطته لكتابة مأساة، وإنه يريد أن

يسمع رأيها في هذا الشكل العبثي الذي، إن أُعطي الحركة ـ وهذا شرطه الأساسي ـ تحتم عليه أن يدمر نفسه .

«جوندروده»، التي لم ترَ مثل هذا الشيء من قبل، ولم تفكر فيه قَطُّ، تفهمه على الفور. يسأل «كلايست »:

. حسنًا؟

وترتجف شفتاه .

تقول المرأة :

ـ أنت تعرف ذلك بنفسك. هذه ليست مأساة. هذه هي ضربة القدر .

يبدو أنها جملة ترضي الغريب بشكل لافت. يمضون وهم صامتون. مرة يأخذ «كلايست» بأدب ذراع «كارولينه». أسوار صغيرة من الحجر غير المصقول، وراءها بساتين تفاح بعد الإزهار، وكروم ضيقة؛ عالم بلا نغمة نشاز. وعلى مستوى رؤوسهم وهم يمشون، النوافذ، بالغة الصغر. نباتات اللقلقي ذات الأزهار الحمراء، وستائر منفوشة بيضاء ناصعة، خلفها الغرف المظلمة مع أسرارها التي لا تنحلُّ. وبين الحين والآخر، وجه مسطح شاحب كالمذعور، ومحاط بقلنسوة .

يقول «كلايست »:

. عضو مجلس المستشارين، وأيضًا السيد «ميرتن»، يمتدحان لي مزايا العصر الجديد في مقابل مزايا القديم. لكنني، يا «جوندروده»، أنا وأنتِ، كما أعتقد، نعاني من شرور العصر الجديد .

تنبعث من الأفنية ومن فتحات الأقبية رائحة التخمر طوال العام. تقول «جوندروده» إنها نادرًا ما تشرب الخمر، ففي معظم الأوقات عليها أن تدفع ثمن تلك المتعة بالصداع. تؤكد لـ«كلايست» أن الأشخاص البالغين ما زالوا يعملون في الكروم في هذه الساعة. فمن ينتظر إلى المتنزهين من أتون إظهار أي اندهاش هم فقط

كبار السن والأطفال. آخر ما يظهر قبل بداية المروج المحاذية للنهر هي ورشة نجارة. الخشب، مضيء بلونه الأبيض، مكدس في الفناء . الصوت الحاد لمنشار. تقول «جوندروده »:

. استطعت أن أفهم رغبتك في أن تصبح نجارًا. أنا أيضًا سيروق لي أن أجلس في المساء، متعبة، بعد عمل متواضع، مع أشخاص حول طاولة. الدفء. قرب الآخرين .

يقول إنها لم تكن طاولة المساء، ولا دائرة ضوء الشمعة. كان ما رآه لدى «فيديكيند» كرسيًا، كما لو أنه لم يسبق له أن تفحص كرسيًا حقيقةً من قبل. قطعة جميلة، صلبة، دائمة. يقول :

ـ بدا لي عندها من الطبيعي جدًا استخدام المهارة والقوة والاجتهاد في تصنيع مثل ذلك الأثاث، الذي لا جدال في استخداماته .

تقول «جوندروده »:

. نعم، إنه لأمر مفهوم جيدًا، أننا نحاول الهروب، على الأقل بالفكر، من الإكراه الذي نخضع له. ولكننا في الواقع غير مسموح لنا بذلك .

ألم تتعامل معه بقدر كافٍ من الجدية؟ أو بجدية أكثر مما ينبغي؟ وما الذي منحها الحق في الجمع بينها وبينه في صيغة «نحن»؟

تركض «بتينه»، التي يبدو أنها تعرف كل الناس، ذهابًا وإيابًا بين المجموعات، ثم تسبقهما، وتتساءل في مزاجها المرح عما يتمنيان إذا كانت لدى كل منهما ثلاث أمنيات. تضحك «جوندروده »:

. سأخبرك لاحقًا .

تقول إنها لا تستطيع أن تختار أمنية، لأن أمنياتها غير محدودة .

. «كلايست»؟ وأنت؟

يقول «كلايست»:

. الحرية. قصيدة. منزل .

. أمور لا تجتمع، وأنت تريد أن تجمع بينها .

يقول بخفة :

. نعم. أنا أعرف .

تَعِد «بتينه» بغروب جميل جدًّا. تلح على «كليمنس»، الذي حملت لـه الجيتـار الخاص به، أن يغني لهم شيئًا ما. يقول حسنًا، إنه سيغني أغنية واحدة، أحدث أغانيه. إنها مهداة لـ«تيان»، الشاعرة الجميلة. ثم يغني :

مايو الجميل، يا صبيّ البراعم،

أحضر لها غصون سلام مُزهرة،

ارجُها بلسان عذب،

أن تُريك الزهرة

التي تثق بها تلقائيًا،

وبنظرتها إلى نهديها .

ثم أريد، في المروج الرطبة،

أن أقطف لها إكليلًا رقيقًا،

وأن أعلم الزهورَ الكلام :

«امنحي الذنبَ سماحًا جميلًا،

الذي عانى من العقاب الشديد ».

ينطلق من «كليمنس» سحرٌ يُصالح مع سماته السيئة، حتى لو كانت تعلم أنه يقصد ذلك. يجثو ويقدم غصنًا، تتعطف عليه بـالقبول وهـي تلعب دور الملكـة الكريمـة. يصـفق الآخـرون ويطالبون بأغانٍ جديدة. تقول «جوندروده »:

. تعالَ، يا «كلايست ».

تأخذ ذراعه وتقوده في عكس اتجاه تيار النهر، بينما تتجه بقية المجموعة إلى ضفة النهر اليمنى .

تندم فورًا على ما فعلت. كان يجب عليها كبت هذا الدافع. هو أيـضًا يفضـل أن يمشـي وحـده. يلعن تربيتـه التـي تمنعـه مـن الانسحاب عندما يرغب في ذلك. ما فائدة أشهر الشتاء الموحشة فـي ماينتز إذا لـم تعطِه ذلـك القـدر البسـيط مـن الحريـة تجاه الآخرين؟

تقول «جوندروده» لنفسها، لكن كما لو أنها تجيبه: نعم، إن أصعب تجاربها تمثلت في فهم أن ما يمكن تدميره فينا هو فقط ما يريد أن يُدمَّر، وما يمكن إغواؤه هو فقط ما يُقبل على الإغواء، والحُرُّ هو فقط ما هو قادر على الحرية؛ وأن هذه المعرفة تتستر بطريقة عجيبة أمام الذي تمسه، وأن الصراعات التي ننهك أنفسنا فيها غالبًا ما تكون معارك وهمية .

يعبر في ذهن «كلايست» السؤال عما إذا يمكن أن يكون قد عانى إلـى هذا الحد بسبب خطأ بسيط للغايـة. ولأنه معتـاد أن يكون قاسيًا مع نفسه، تمنحه الفكرة متعة شرسة، ويود بكل سرور أن يتتبعها في جميع الاتجاهات. هذه فكرة يمكنها أن تقتل إنسانًا إذا أخـذها فعلًا علـى محمل الجد؛ ولكن ها هي تلك الآنسة هناك، تنظـر فـي اتجاهـه، وهـي موضـوعة بذكاء في مشهد الطبيعة . إخراج رخيص، ومزعج ومثير للغضب .

لا يريـد «كلايسـت» إخفـاء كـيف أنـه يـرى حقيقة الموقف. لكن يزعجـه مجـددًا أنـه يحتـاج إلـى قـرار كـي يشـعر بأقل قدر من العاطفـة. الأفعـال الحقيقيـة تنبع مباشـرة مـن الـروح، مـن دون المرور عبر الرأس، لكنه ليس قادرًا عليها، وكثيرًا ما ناقش هذا الأمر مع «بفول»، إلى درجة الإنهاك .

الآن يفهم فجأة تعبه الدائم أبدًا. يتبادر تشبيه إلى ذهنه: آلة يتم تشـغيلها بسـرعتها القصـوى وكبحها فـي الوقت نفسه. لا بـد أن

يكون التآكل بالغًا، وأيضًا متوقعًا. يقول إنه لأمر لافت جدًّا، كيف يخضع المرء باستمرار مجددًا لطريقة تفكير يعرف أنها خاطئة، ولا يجد في نفسه القدرة على انتزاع العربة من مسارها المعتاد. في بعض الأحيان يكون في الصدمة الخارجية مساعدة للرأس المتيبس، كما حدث له قبل بضع سنوات في بوتسباخ، عندما فرت خيول العربة، خائفةً من صراخ حمار خلفها، ووضعته هو وأخته في خطر كبير.

تقول «جوندروده »:

. بوتسباخ؟ لكنني أعرفها جيدًا. عاشت جدتي هناك، وبعد وفاتها، سكنتُ أنا هناك لمدة نصف عام !

يصف لها «كلايست» موقع الحادث، وتُضيف هي تفاصيل لم يلاحظها بسبب توتره حينها. لكنه لن ينسى أبدًا الفكرة المتشككة التي ظن أنها ستكون فكرته الأخيرة: أهكذا إذن حياة الإنسان متوقفة على صرخة حمار؟

تصيح «جوندروده» ضاحكة :

. أشعر الآن وكأنني مسؤولة عن فكرتك تلك، لمجرد أنها أتت إليك في بوتسباخ !

يقول «كلايست »:

. نعم، فهل تعتقدين أن لدينا أي شيء يذكَر، يمكننا أن نواجه به الصدفة العمياء التي تحكم حياتنا؟ !

يلمسها الرجل بكلامه. لا تعرف إن كان يعجبها، ولكن حتى النفور لن يُعكر حكمها عليه: هذا ما يسمونه «برودها»، أنها لا تستسلم لأحكامها السابقة. عمومًا هي لا تريد أن تفرض آراءها على السيد «فون كلايست » ، الذي يتسم . تحديدًا عندما يصبح جادًّا ومتقدًا . بشيء غريب، ولكنها لا تستطيع أن تحدد بأي معنى. عليها أن تفكر مع «بتينه» لماذا يقابلها في أحيان كثيرة شباب تشعر أنها متفوقة عليهم .

ـ سؤالك، يا «كلايست»، لا يؤدي إلا إلى تعذيب الذات. صرخ الحمار. شبَّ حصانك وانطلق ـ جميل وجيد. احترامك لذاتك يتمرد على مثل هذا الموت. لكنْ هل كنت قادرًا على تسميته «مصادفةً»؟ ألم يكن نتيجة لمجموعة من الأحداث التي تسببت فيها أنت؟ ما الذي دفعك إلى الذهاب إلى بوتسباخ؟ عمَّ كنت تبحث في تلك الرحلة، التي كان يمكنك أن تتخلى عن القيام بها؟

. أنتِ حاذقة جدًّا، يا «جوندروده». بشكل فريد جدًّا كانت تلك الرحلة، من بدايتها، مزدوجة الطالع. فمن جهة أردتها، كي أرفِّه عن نفسي بعد أن تبيَّن لي، من خلال المعرفة المتوثقة بفلسفة «كنط»، أن هدفي الأوحد والأسمى، المتمثل في اكتساب العلم والحقيقة، غير قابل للتحقيق. ومن جهة أخرى فُرضت الرحلة عليَّ: لأن شقيقتي لم ترغب في التخلي عن مشاركتها، فقد احتجنا إلى جوازَي سفر آخرَين، سُجِّل فيهما الهدف والغرض من الرحلة. ماذا كان عسايَ أن أقول؟ فوجدت مسجَّلًا فجأة: «باريس»، وما أثار دهشتي وكدت لا أصدقه : «دراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية». أنا، الذي لم تكن لديَّ أي نية إلا الهروب من العلوم! فورًا امتلأت محفظتي برسائل توصية للباحثين في العاصمة الفرنسية. اعتقدت أنني أحلم. هل كان عليَّ أن أسافر؟ هل كنت لا أزال أريد ذلك؟ هل كان بإمكاني أن أحجم عنه؟ وهكذا تم تزييف قراري الحُر، من تحت الطاولة، ولم أستطع أن أخلص نفسي من تلك الورطة، فركبت سيارة السفر بأكثر المشاعر تناقضًا .

ثم يضيف في فكره: من هذا المنظور، لا تُعتبر الحادثة في بوتسباخ إطلاقًا صدفة غير مبررة. بالنظر إلى الوراء، يجد في نفسه شبه تقدير للعبة الجلاد هذه، التي تعرف كيف تجمع الخيوط الأكثر تنوعًا ـ الخيوط التي تأخذها عن غير قصد أو سهوًا، وتلك المحتومة التي لا مفر منها ـ لتصنع منها للإنسان مشنقة .

يسعده أن يمسك الحياة متلبسة وهي تحوك مكائدها .

ها هو ذا صامت مرة أخرى. وتتشكك «جوندروده» في الأشياء المسموح لها الخوض فيها معه بالحديث، وما ليس مسموحًا. بالطبع لن تذكر ابنة القس في فيزبادن، التي سمعت «فيديكيند» يتحدث عنها همسًا بخبث . ولا يبدو على «كلايست» هذا أنه يمكن للمرء تملقه من خلال قصص غرامياته. وهذا شيء يُحسب له. لحسن الحظ تتذكر . وقد لان ضبطها الشديد لنفسها بفضل التعب، وبفضل وجود «سافينيي» . تفصيلًا ضئيلًا لفت انتباهها ضمن كل الثرثرة الدائرة حول «كلايست ».

. سمعت أن الآنسة أختك سيدة مِقدامة؟

. بأي معنى؟

لماذا تَهيُّج الأعصاب هذا من جديد؟ لماذا لا تزال نقطة الضعف هذه موجودة، وستظل معه . يعرف ذلك . حتى نهاية حياته، عند مجرد الإشارة إلى عائلته؟ الموضع الذي قطعته سكين بعمق في الجسد ذات مرة يتألم عندما تمسه ريشة. لا يمكنه أن يبلغ بالإكراه الشيء الوحيد الذي سيخفف من حدة الألم: أن يحبهم من جانبه وبالقدر المناسب، أولئك الذين وجد لديهم كل ما يمكن أن يربط القلب . الحب والثقة والحماية والدعم بالنصيحة والفعل . أو أن يعترف لنفسه بأن ذلك غير ممكن، وبالتالي يتخلص من الشعور بالذنب. هكذا يتناقض في داخلي العمل والشعور ...

. يقولون إن أختك رافقتك إلى باريس في ملابس رجالية .

ليس قادرًا على إدراك الاهتمام الأعمق وراء أسئلة «جوندروده». إنها مثل الجميع. المثير، ولا شيء آخر. «أولريكه»، الفتاة المسكينة .

تقرأ «جوندروده» أفكاره وتشعر بالاحمرار يجتاح وجهها. لا تخفي عليه الاستياء الذي يستحقه عندما يحكي على سبيل التسلية تلك القصة التي أثبتت جدواها مرارًا، والتي تحتل «أولريكه» مركزها: كيف أن موسيقيًا أعمى خاطبها في باريس . حيث لم يتعرف أحد آخر على أنها امرأة وهي في ملابسها

الرجالية . باستخدام كلمة «سيدتي» بعد أن أثنت على عزفه، ما اضطرها إلى مغادرة القاعة مع أخيها على عَجل .

لا تضحك «جوندروده». نادرًا ما تشعر بالحسد، ولكنها الآن تشعر به .

. أود أن أتعرف إلى أختك .

لا يعرف «كلايست» إن كان يجب أن يُجرَح شعوره. يطلب منها معرفة سبب هذه الرغبة .

لا فرق بالنسبة إلى «جوندروده» أن تتحدث إلى إنسان متعصب أو متسامح. تقول إنه وفقًا لملاحظتها فإن حياة النساء تتسم بشجاعة أكبر من حياة الرجال؛ وإنها إذا سمعت عن امرأة تُظهر تلك الشجاعة، فإنها تتوق إلى التعرف إليها. لقد أصبح من الضروري أن تدعم النساء بعضهن بعضًا حتى عبر المسافات، لأن الرجال لم يعودوا قادرين على القيام بذلك .

الآن عليها أن تشرح له ذلك أكثر .

. آه يا «كلايست»، أنت تعرف ذلك. لأن الرجال الذين قد يناسبوننا هم أنفسهم في حيرة لا مخرج منها. من خلال سير الأعمال التي تقع على عاتقكم، تُقسمون إلى قطع لا تكاد تكون مرتبطة بعضها ببعض. نحن نبحث عن الإنسان بكامله، ولا يمكننا العثور عليه .

الآن يصمت الرجل. هل يجب أن تتحدث امرأة هكذا؟ ما الذي يجبره على التحدث مع هذه المرأة هنا، التي يراها للمرة الوحيدة في حياته، عن طبيعة جنسها وجنسه؟ عن شكه الذاتي الأكثر خفيةً، وفشله الأكثر إحراجًا؟ عن النقطة التي لا يمكن وصفها بكلمات؟

فيما يتعلق بـ«أولريكه»، فقد يكون إحساس الآنسة «جوندروده» . الحساسة كما تكون النساء . صادقًا. لكنه يتجنب أن يتتبع بشكل أعمق الشجاعة، بل التهور، الذي تُظهره الأخت في كثير من الأحيان، وسيواصل تجنب ذلك. إنه لا يعرف شيئًا آخر، ولا يريد

أن يعرف شيئًا سوى أن صورة الأخ محفورة في قاع روحها، وقد لعبت بالنسبة إليه دور الأم، وتحبه حبًّا مستأثرًا، استحواذيًّا، وتريد. أو ربما هو الذي يريد؟. أن يبقى هو الرجل الوحيد في حياتها. ألا يراعي هو شعورها؟ وماذا لو أساءت إليها مراعاته؟ كل شيء، تقريبًا كل شيء مما تقوله وتفعله، يتناسب مع صورة الأخت التي تجد رضاها في تضحيتها بنفسها من أجل أخيها؛ والتي لا تكاد تأمل أن تتزوج زيجة جيدة، فهي ليست غنية ولا تتمتع برشاقة كبيرة ولا بمحاسن أنثوية لافتة. على عكس المرأة التي تمشي بجانبه؛ والتي على حد علم «كلايست» لم تتعلق قَطُّ بهذا الأمل كثيرًا.

هذه هي البقية غير القابلة للذوبان، والتي لا تتلاءم مع الصورة العامة، والتي لا يحتاجان أن يتفاهما حولها بأي كلمة، ولا حتى بنظرة، ولا يسمح لهما بذلك. هو ليس رجلًا تمامًا، ولا هي امرأة تمامًا... ماذا يعني هذا؟ الحب الأخوي، الذي يحافظ الإنسان عليه. ويتحمله، ما دام لا يدرك ما يفعله الدم في الصمت السحيق. نعمة قرابة الدم، فكرة لم يفكِّر فيها. قرابة تخفف من الحيرة تجاه الجنس الغريب، الذي لا يستطيع المرء الاستسلام له.

لدى «كلايست» أسباب للشك في أن «أولريكه» أيضًا في ذروة خطبته مع الآنسة «فون تسنجه» تلك. الطموح إلى الأمان في التقاليد!. كانت في سرها توافقه الرأي حول زيف العلاقة، الذي كان ثقيلًا عليه تمامًا كما كان إصرارها المستمر على أن يفي بوعده أخيرًا تجاه الخطيبة. أفضل مَن يعرفنا هو أدق مَن يصيب. ومع ذلك، لم يكن هذا الإلحاح، الذي أفسد عليهما إقامتهما في باريس أكثر، هو ما أغضبه منها إلى حد الغيظ؛ ما أشعره بالمرارة هو أنه لم يستطع أن يحطم لها الكوميديا بكلمة صريحة وخشنة.

النساء.

. ما فكرتَ فيه توًّا، لم تعرفه من قبل، أليس كذلك؟

ينظر حوله. أصفر الهندباء وسط اللون الأخضر، ألوان يجب أن يسوق المرء الرسامين إليها، كي يعلمهم المعنى الحقيقي لكلمات مثل «أصفر» و«أخضر». مرج مثالي لدرجة لا يسمح المرء لنفسه معها أن يسميه «مرجًا». على الجانب الأيمن الوميض الفضي للصفصاف المحاذي للنهر، والذي تلعب عليه انعكاسات الماء. شيء ما فينا يُطلق دفاعاتنا النفسية ضد كمال الطبيعة، عندما يقابل هذا الكمال تمزقنا .

على «جوندروده» حماية عينيها مرة أخرى . لا يود «كلايست» الآن المشي وحيدًا. لكنه مجددًا لا يتقبل أن تُعبر المرأة عن إحساس يعرفه. تقول إنه لا يمكن أن يكون أي شيء أكثر كثافة وجمالًا وحقيقية من هذا المنظر الطبيعي، الذي كثيرًا ما يبدو لها امتدادًا لنفسها. ومع ذلك يمكنه أن يتغير في رمشة عين إلى لوحة مطلية، مشدودة على إطار، من دون أي غرض سوى السخرية. وهي تخشى أن يتمزق القماش، ولكنها تريد ذلك أيضًا؛ في أثناء نومها، عندما تصحو فجأة، تسمع أحيانًا صوت التمزق :

ـ وما قد نحظى برؤيته حينها، يا «كلايست»، سننظر إليه من خلال الشقوق في الهاوية التي وراء الجمال: وهذا سيكون من شأنه أن يسكتنا .

إن الرغبة غير الصحية في الإشارة إلى العتلات والقضبان وراء الكواليس، لم يقابلها «كلايست» في امرأة حتى الآن .

تقول إن الفوضى فظيعة، فوضى العناصر غير المترابطة في الطبيعة وفينا. الدوافع الهمجية، التي تحدد أعمالنا أكثر مما نعرف. إنه أمر صحيح بشكل فظيع . بإمكانها أن تتصور ذلك .

مثل تلك الكلمات. لن يضعها أبدًا كبار السن في جملة .

يفكر كلاهما بالاسم نفسه: «جوته ».

يقول «كلايست »:

. الأكثر فظاعة هو ذلك الأمر الداخلي الذي يجبرني على التصرف

ضد نفسي .

وترد «جوندروده»، كما يقتبس المرء سطرًا من قصيدة :

ـ أن ألِدَ ما يقتلني .

لا يمكنه أن يعرف أنها كتبت مثل تلك السطور .

ـ «جوندروده»! تراجعي عن الجملة .

ـ لا، يا «كلايست». لا يمكن الرجوع عن أي كلمة .

مـاذا اقتـرح «فيـديكيند» عليـه؟ الاعتـدال، ومراجعـة الـذات، والتواضع أيضًا. ليس هذا الاضطراب. وليست اليدان الباردتان، ولا خفقان النبض في الصدغين. وليست هذه الرغبة في الخطر. وليس هذا الأمل الجامح مرة أخرى. ليس كل هذا، الذي يجعله على ما هو عليه. خسر «فيديكيند». لن يتأتى شيء من هذا .

يقول :

ـ لكن يـا «جونـدروده»، ألـيس مـوعزًا إلينـا بـأن نتـوقف، قبل أن تتشكل مثل تلك الجمل في داخلنا !

تقول المرأة :

ـ نعم. إنه موعز إلينا بهذا .

ـ و؟

ـ وعلينا أن نخالف الإيعاز .

ـ لماذا؟

ـ لا يعرف المرء ذلك .

توجد طيور هنا، تتطاير كالغبار من مرج مرتفع، مُصدرةً صرخات رهيبـة فـي أثنـاء مرورها. يـفزع «كلايسـت». تضـع «جونـدروده» يدها على ذراعه. يعرفان أنهما لا يريدان أن يمسهما أحد. وفي الوقت نفسه يشعران بندمٍ ما، بشفقة على لغة جسديهما المكبوتة

بحزن على ترويض الأعضاء المبكر جدًا في الزيِّين الرسمي والديني، على التأديب باسم النظام، والتجاوزات السرية باسم مخالفته .

على المرء أولًا أن يتحرر من نفسه، كي يعرف الرغبة في نزع ملابسه والتدحرج على هذه المروج .

ذات مرة، في طريق العودة المشين من الساحل الفرنسي، حين كان حتى احتمال الموت قد تبدد، سار «كلايست » في هضبة خفيفة التموج عند منتصف الليل، متعبًا، ولكن بحواس حادة. كلما كان في المنخفض، أحاطت به التلال مثل ظهور حيوانات دافئة ضخمة. وكان يراها تتنفس، ويتسمر في مكانه فيشعر بنبضات قلب الأرض تحت قدميه، ويجمع قوته لمقاومة مشهد السماء، لأن النجوم . ولم تكن أنوارًا كما كان يراها فيما عدا ذلك . بأجسادها الهائلة المتلألئة كانت تهدد بالسقوط عليه . نسي نفسه، من دون أن يستسلم، ومشى لفترة طويلة، ورأى أخيرًا أضواء الصباح في إحدى القرى على اليمين، وطرق بابًا، وفتحت له امرأة، وبدا له وجهها جميلًا في ضوء الشموع، وتركته يدخل، ووضعت له في صمت سلطانية مملوءة بالحليب على طاولة الخشب الخام، وأشارت إليه بالنوم في مستودع قش. تمدد هناك، وأحس في جسده وأطرافه ما كانت الحرية، من دون أن تخطر بباله الكلمة مرة واحدة. وضع ذلك له معيارًا كان عليه السعي إلى تحقيقه، وعدًا بأنه في قدرة الإنسان، حتى في قدرته هو، أن يجد مشيةً تقوده إلى الحرية. لأن ما يمكن أن نرغب فيه يجب أن يكون في مجال قدراتنا، هكذا فكر، وإلا فإن من يحكم العالم ليس إلهًا، بل الشيطان، وقد خلق، في حالة مزاجية مجنونة، مسخًا يتمثل مصيره في بذل عرق جبينه لسحب مأساته الخاصة من حِجر الزمن بواسطة سلاسل الساحرة الشريرة .

تلتقي نظرته بنظرة «جوندروده». الآن يشعر بالأسف لأنه لا يعرف قصائدها. قد يستحق العناءَ قياسُ تحيزها للأمور المطلقة بتحيزه. فربما يوجد إنسان تحت السماء يمكنه أن يأتمنه على الهموم التي تستنزفه. فالإنسان لا يفهم ما لا يشاركه مع

الآخرين .

يفاجئ نفسه بالقول :

. لم ينتج «جوته»، إن لم أكن مخطئًا، أي عمل شعري منذ فترة طويلة .

تضحك متفهمة .

يقول :

ـ في بعض الأحيان راودني الظن أنه ـ لا أجد الكلمة بسهولة ـ خارج الحياة .

. ماذا تقصد؟ شيء يشبه حسرة «ليونوري سانفيتالي»، حول لماذا لم تجعل الطبيعة من «تاسو»، الشاعر، و«أنطونيو»، رجل الدولة، إنسانًا واحدًا؟

يصيح «كلايست »:

. نعم، هذا! شيء من هذا القبيل. (لقد اختفى تعثره في الكلام منذ فترة طويلة). أن يقدم المستحيل المحض على أنه مرغوب فيه، وبالتالي ممكن .

لقد اختبر هذا في بدنه نفسه .

وسيكون قد دفع الثمن لذلك .

ساعات لا حصر لها، قضاها في محاولة التخلص من ذلك الإنسان، وقد أعماه الحب، وجعلت الكراهية نظره ثاقبًا. شعر سابقًا بكل إهانة كان الآخر من دون شك يحضرها له. بجنون، غرز الشوكة بعمق في جسده. وذاك؟ إذا خرج سليمًا من الأمر، غير آبهٍ بوجودي، إذا لم أستطع أن أجعله يدفع ثمن معاناتي، فسأنتزع إكليل الغار من فوق جبهته .

ـ ألا تخشى من أن المعيار، الذي تُخضع نفسك له، يمكنه أن يدمرك؟

ـ أنـتِ يـا «جونـدروده»، كـامرأة، لا تسـتطيعين معرفـة مـا هـو الطموح .

لقد نُطِقت الكلمة .

تفكر «جوندروده»: هذا الإنسان غريب بالنسبة إليَّ، وقريب مني في الغرابة. ثم تقول، كأنها ما زالت تستمع إلى الكلمة :

. الطموح .

. لا تهوِّني من الانتقام، يا «جوندروده». هل تريدين قضاء حياتكِ وإلهات الانتقام تطاردكِ؟! تريدين؟! إنكِ تضحكينني .

. يبدو لك الأمر وكأنه واجب فولاذي. أدرب نفسي على أن أرغب أيضًا فيما هو واجب عليَّ .

. وتحصلين هكذا على وهم الحرية .

تقول :

. وفق ملاحظاتك، فإن طموح الموهوبين يصقل نفسه على حجر رداءة الظـروف، وطمـوح غـير الموهوبـين علـى حجـر رؤيتـهم المشوَّهة لأنفسهم .

. أحسنتِ! وأي نوع ترين أني أنتمي إليه؟

. كل شخص يعرف ذلك عن نفسه .

. لا، يا «جوندروده»! ألا ترين أن بعض الناس يؤسسون بليتهم على خداعهم أنفسهم؟ ولا يلاحظون أي شيء، حتى الموت؟

تقول :

. هذا صحيح. العمى الذي يعترينا. أننا لا نستطيع أن نعرف إلى أين تقودنا انحرافاتنا عن الطرق. أن الزمن يجب أن يخذلنا، فهذا قانون. ولكن إذا كان ما نسمح لأنفسنا به سيكتسب شرعية ما في يوم بعيد ...

يتساءل «كلايست» متى وكيف جاء اللون الداكن إلى حياته وانتشر فيها كالحبر الأسود في جرة من الماء الصافي. يتذكر. ولكن كما لو أنه يفكر في شخص غريب. أيام الآحاد عندما كان ضابطًا في الجيش، وكان ينطلق من بوتسدام عبر البلاد مع ثلاثة من أصدقائه ويعزف في أنزال القرى ليرقص الحاضرون. كان ذلك في حياة أخرى. لقد فقد حتى القدرة على تمني أن تعود تلك الأيام. هل المرأة إلى جواره، التي تعرف كيف تصمت لفترة طويلة، وتستطيع أن تترك سؤالًا من دون رد، ترى انكسارات اللون الأخضر نفسها في الظلال التي تلقيها أشجار الصفصاف؟ وهل للنهر، الذي يبدو أنه يكاد يقف ساكنًا، أيضًا بالنسبة إليها هذا البريق المعدني الذي لا تنتجه الشمس إلا في تلك الساعة من خلال وقوع أشعتها على الأرض؟ كل شيء يمكن تفسيره. يرى نفسه ويراها من مسافة بعيدة، كما لو كان واقفًا، وهو يسير بجانبها، في مكان مراقبة مرتفع، مثل شخصيات غريبة على ضفاف نهر الراين، موضوع مقبول للوحة بالألوان المائية. لكن هل سيكون رسامٌ قادرًا على أن يضع على الورق انفصال المرء عن نفسه، وعن الآخر، وعن الطبيعة المحيطة به؟ هذا حكرٌ علينا، هكذا يفكر «كلايست».

. وهل تعرف أيضًا لماذا لا يكتب العجوز في فايمار مأساةً؟

. لماذا؟

. إنه يخاف من ذلك. هذا كل شيء.

تبقى موافقتها، ومشاركتها غائبتين. تقول، كما لو فكرت في شيء آخر:

. أنت، يا «كلايست»، تأخذ الحياة بجدية خطرة.

. ذات يوم، يا «جوندروده»، سوف يخاف مني.

. سيكون ذلك غير مريح بالنسبة إليك.

يصمتان.

ـ وأنتِ يا «جوندروده»؟ تريدين إقناع نفسكِ بأنكِ يمكن أن تتصالحي مع وجودكِ المحدود؟

ثم يشعر بالفزع. منذ فترة طويلة إلى حد لا يمكن تصوره، لم ينتهك حدود المناطق المحرمة لدى شخص آخر. هل يشعر بالتهديد للدرجة التي تجعله يهاجم؟

«الأحمر ـ لون الحياة ولون الموت». فكرة بلا سياق. ترى «جوندروده» نفسها في الزي الديني الأسود ذي الياقة العالية المنشاة، شابة تقف عند المائدة الطويلة، تنتظر حتى تعطي الراهبة الرئيسية الإشارة للصلاة وبداية تناول الوجبة. الجمود، الخوف من ذلك. تسمع في أذنها ذلك الصوت الذي تميزه عن جميع الأصوات العادية، والذي يشير إلى أن الوقت قد حان للانسحاب، لإغلاق الستائر، والاستلقاء على السرير الضيق الصلب. وراء الجفون المغلقة، ترك الغلبة للصداع. برد الأطراف، غرفة صامتة صمت القبور. النقطة الحمراء النابضة فوق جذر الأنف. رجوع الجسد المبعثر إلى نفسه. ومعرفتها السرية بأنها تمتلك وسيلة العلاج من هذه الأيام المظلمة، من دون أن تستخدمها بعد، لأنها ستؤلمها أكثر مما يمكن لأي ألم جسدي أن يفعل: أن تنطق بالسبب لجريمتها. الحظر عن طريق التسمية، وأيضًا القتل. اليوم الذي ستنطق فيه بسبب معاناتها يجب أن يكون يومها الأخير.

أيها الأحمر الحميم

حتى الوصول إلى مشارف الموت ...

يجب على حبي أن يشبهك ...

ـ «جوندروده»، لا تتكلمي! سامحيني !

ـ ليس بعد. الحياة المحدودة أيضًا يمكن مدها حتى أطرافها، التي كانت غير مرئية من قبل. فقط هذا الذي ليس لدينا حواس لإدراكه يضيع علينا. أما من فُتحت عينُ الروح لديه فإنه يرى أشياء مرتبطة به وغير مرئية للآخرين. كل ما يُحفز النفس

وينعشها ويملأها هو مقدس بالنسبة إليَّ، حتى لو لم يبقَ في الذاكرة شيء منه .

. هل هذه حكمة، يا «جوندروده»؟ تواضع؟

. ليست فقط ظروفي، ولكن أيضًا طبيعتي رسمت لطريقة تصرفي حدودًا أضيق منك، يا «كلايست ».

. لديكِ التوازن، القصيدة. القصائد هي ترف السعداء .

. الذين لا تُعد نفسك واحدًا منهم .

. لا .

أن يعبر عن نفسه مباشرة في القصيدة، هو أمر محظور عليه. حاجته إلى أن يصب شعوره في أبيات شعرية لا تفجر الحواجز المقامة أمام بعض المناطق في داخله . في التمتع المبتهج بالحياة، وفي الحب، وفي الشعر، يسبقه شاعر فايمار دائمًا. معزَّزٌ. أمر لا يمكنه أن يتصوره عن نفسه، هو اليتيم، والمعدم تقريبًا، والملازم في حامية مدينة بوتسدام، والخاضع لنظام تدريب عسكري. لحظات الإذلال، وأكثر ما لا يُحتمل منها: وجوب إذلال آخرين . لم تضغط الظروف قَطُّ على الآخر بتلك الوحشية التي تجعل كل حلم، قبل أن يظهر حتى، يتحطم بسبب عدم قابليته للتحقق، وبقاياه تحطم المادة التي تُصنع منها القصائد. هو لا يجرؤ .

يقول «كلايست» (شيءٌ ما في تلك المرأة يجذب منه، مثل المغناطيس، أكثر الاعترافات عُرضة للنقد):

. أحيانًا يكون من غير المحتمل بالنسبة إليَّ أن الطبيعة قد قسمت الإنسان إلى رجل وامرأة .

. أنت لا تعني ذلك، يا «كلايست». أنت تعني أن الرجل والمرأة بداخلك يتقابلان بعدائية. تمامًا كما في داخلي .

ماذا تعرف عنه؟ إلى أين نحن ذاهبان؟

لا يمكننا تقديم أي تنبؤات .

. أنا أضحك، يا «جوندروده ».

. لماذا؟

. لماذا يضحك المرء؟ ليس من السعادة. كما سيتوقف المرء قريبًا عن البكاء من الحزن. قريبًا سيكون لدينا هذا الضحك فقط تجاه كل شيء يطرأ علينا. سوف يرافقنا ضحك جهنمي، وأنا لا أعرف إلى أين .

. لن نكون هناك، أنت وأنا .

. لا .

. لو استطاع المرء أن يفهم من أي نوع هذا التدفق ولماذا سيكون جارفًا للغاية. انزياحات قوية مثل ألواح الجليد الطافية. يبدو الأمر وكأنني أقف فوق لوح، وسط انجراف جليدي، في ظلام دامس. يسير التيار، وأنا لا أعرف إلى أين يذهب، يميل اللوح العائم، مرة إلى هذا الجانب ومرة إلى ذاك. وأنا مشبَّع بالرعب، والفضول، والخوف من الموت، والرغبة في الراحة، يجب أن أكافح من أجل توازني. مدى الحياة. وأنتِ يا «جوندروده»، أخبريني الآن من الذي يُصدر مثل تلك الأحكام علينا .

يجتازهم بضعة أشخاص مشيًا، حاملين عُدة العمل، ويستديرون لينظروا إلى الرجل الذي أمسك بالآنسة من ذراعها. يبدو أنها لا تجد غضاضة في ذلك، ولا تحتاج إلى مساعدة، ولا تخشى طريق الرجوع الطويل الذي ينتظرهما .

. أعتقد أننا نطرح الأسئلة الخاطئة عندما نضع أنفسنا في مواجهة المصير، بدلًا من أن نرى أننا نمثل وحدة واحدة معه: أننا نحفز سرًّا ما يحدث لنا. هل تفهم، يا «كلايست » ؟ خلاف ذلك، فإن الجميع يحدث لهم الشيء نفسه إن كانت الظروف متشابهة .

هل تكون تلك هي المرأة التي لا يجب على المرء الخوف من الوقوع في حبها؟

ذات مرة يجب أن يقف أمامها رجل لا تعرف عنه شيئًا. رجل لا يمكنها أن تعلم عنه شيئًا إلا إذا اكتشفت نفسها حتى الأعماق، وصولًا إلى حدودها وإلى ما وراء حدودها. ولا شيء بعد ذلك. (تتذكر متى واتتها الفكرة لأول مرة: عندما ركب «سافينيي» عربة السفر واعتصرت يده حين تحركت العربة؛ عندما غادر ورأت هي، برباطة جأش مفاجئة، كل ما من شأنه أن يتبع هذا الوداع، لأن كل ذلك كان مقررًا داخلها. فهمت كيف يصبح بعض الناس عرافين: ألـمٌ قـوي، أو تـركيز قـوي، يضـيء المشـهد بـداخلهم. لـم يظـهر «سافينيي» في المشهد، على الرغم من ظنها بأنها تتوق إلى ذلك. كان بيدها أن تمنح تلك الرغبة، التي بدأت قوتها وحميميتها في الخمول، وقودًا وارتباطًا جديدَين . لكنها استسلمت لجمودها، بل وخمولها تقريبًا. ومؤخرًا، عندما احتفلت مع حشد كبير بزفاف «جوندا برنتانو» و«كارل سافينيي » ، لم تستطع أن تتخلص من الإحساس الغريب بأنها احتضنت العروس من قبل، وصافحت العريس من قبل، وجلست مع الأشخاص أنفسهم في المناسبة نفسها حول هذه المائدة من قبل). قد تستحضر وهج النار لتُذيب الجدار بينها وبين الآخرين. بداخلها إحساس سابق بالحياة، جدير بـذلك الاسـم. ذات مـرة سـيكون عليـها اتباعـه مـن دون تفكير. وتعرف أنها ستموت بسبب ذلك، ولكنها تعرف أيضًا أنها قادرة على نسيان هذه المعرفة عندما يحين الوقت. أن الموت يجب أن يفاجئها .

. أظن أحيانًا أنني أحتاج إلى بقية البشرية لكي أكمل نفسي. لعلك ترى في ذلك جنونًا .

ما أراه أنا، يا «كلايست»، فهو النقص .

المرأة تعاني، لا يشك «كلايست» في ذلك، لكن النساء هن الجنس الذي يعاني. سوف تتحمل ذلك، وإن كان أصعب عليها . هذا ما يعترف لها به . من الأغلبية، وبهذا فهي تشبه أخته. ولكنه يقول فـي نفسـه: إنـها مؤَمَّـنة، أيًّا كان معنى ذلك؛ ليس عليها توجيه أفكارها نحو أكثر المتطلبات اليومية تفاهة. كون أنها ليس لديها

خيار يبدو له ميزة. هي، بوصفها امرأة، ليست خاضعة للقانون الذي يقضي بتحقيق كل شيء، أو اعتبار كل شيء كلا شيء .

يعدد «كلايست» الدول التي يعرفها، فقد أصبح ذلك دافعًا لديه. تعلم أن ظروفها تتعارض بشدة مع احتياجاته. اختبرها بنية صافية وثقة مذعورة، ورفضها على مضض. ويا للارتياح، عندما تخلى عن الأمل في وجود دنيوي من شأنه أن يناسبه .

حياة لا تُحيا. ليس في أي مكان. إطلاقًا .

أحيانًا يشعر بالحركة المعقدة لدوران الكرة الأرضية تصل حتى نخاعه. ذات مرة ستقذف به فوق حافة تلك الكرة المحدودة، إنه يشعر بالفعل بتيار الرياح. في حين أن المرأة هنا يمكنها دائمًا، مهما بدا ذلك غير محتمل، أن تجد عشيقها، ومنزلًا متواضعًا حيث تستطيع أن تجمع أطفالًا حولها وتنسى أفكار شبابها المجنونة .

. ما رأيكِ، يا «جوندروده»: هل لكل إنسان سر لا يمكنه التعبير عنه؟

تجيب «جوندروده »:

. نعم. في هذا العصر؟ نعم .

كان الجواب جاهزًا لديها .

يتوقفان، ويستديران ليتقابلا. يرى كل منهما السماء من خلف رأس الآخر، الزرقة الشاحبة الخاصة بالوقت المتأخر من بعد الظهر، وسحبًا صغيرة. يتفحص كل منهما الآخر بصراحة. نظرات عارية. استسلام، على سبيل التجربة. الابتسامة، أولًا على وجهها، ثم على وجهه، ساخرة. فلنعتبرها لعبة، حتى لو كانت جادة. أنت تعرف ذلك، وأنا أعرفه أيضًا. لا تقترب كثيرًا. لا تبقَ بعيدًا جدًا. اختبئ. اكشف عن نفسك. انسَ ما تعرفه. احتفظ به. تسقط الأقنعة، والقشور، والأغلفة، والتلميعات. الجلد العاري. ملامح صادقة. وجهي، هذا هو. وهذا وجهك. مختلفان أساسًا. ومتماثلان في الأساس. امرأة. رجل. كلمتان عديمتا الفائدة. نحن،

كلٌّ مسجون في جنسه. إن تلك اللمسة، التي نشتهيها شهوة لامتناهية، غير موجودة. لقد قُتلت معنا. يترتب علينا ابتكارها. تُقدم نفسَها لنا في الأحلام، مشوهة، مفزعة، متجعِّدة. القلق عند الفجر، بعد الاستيقاظ مبكرًا. ونبقى غير قابلين للتعارف، غير قادرين على التقارب، مدمنَين على التنكر. أسماء غريبة نضيفها لأنفسنا. تُدفَع الشكوى مرة أخرى إلى الحلق. يتمنع الحزن، إذ أين الخسائر؟

أنا لست أنا. وأنت لست أنت. فمن يكون ذلك الـ«نحن»؟

نحن وحيدان جدًّا. خطط مجنونة تلقي بنا على المسار المنحرف. اتباع الحبيب في ملابس رجالية. ممارسة حرفة: تمويه، أولًا لأنفسنا. وحتى عندما يكون المرء مستعدًّا للموت، فإن الجراح التي يجب على الناس أن يلحقوها بنا تؤلمنا؛ وضغط الألواح الحديدية، التي تقترب لتسحقنا أو تدفع بنا إلى الحافة، تكتم أنفاسنا تدريجيًّا. لكن يجب أن نستمر، لاهثين وخائفين، في الكلام؛ نحن نعرف ذلك .

وأيضًا أن لا أحد يسمعنا. وأيضًا أن عليهم الدفاع عن أنفسهم ضدنا: إلى أين سيصلون؟ إلى حيث نكون نحن . من أراد أن يتمنى لهم ذلك؟ لأننا لا نستطيع أن نتمنى لأنفسنا أن نكون حيث نحن. لأننا لا يمكن أن نغير ذلك. لأننا يحب بعضنا بعضًا ويكره بعضنا بعضًا .

أن الزمن يُبرز رغبتنا، ولكن ليس أكثر ما نرغب فيه .

العواطف المكبوتة .

لسنا لائقين بما نتوق إليه .

علينا أن نفهم أن الشوق لا يحتاج إلى مبرر .

يبدو أن الزمن يريد تأسيس نظام جديد للأشياء، ولن نرى شيئًا من ذلك سوى سقوط النظام القديم .

أن ندرك أن كائنات لم تولد بعد سوف تفهمنا .

الكفاح من أجل الموقف، كما لو كان لما نفعله أو نتركه معنى .

أصبح التيار الآن إلى يسارهما، ويسيران عائدَين إلى المكان. الشمس منخفضة، لكن الجو يبقى دافئًا. إنها أمسية جميلة؛ تتنفس «جوندروده» بهدوء، ولم يعد «كلايست» يشعر بأي ضعف .

سرعان ما سيعود إلى دياره، تحت السماء الباهتة، المشدودة فوق أبراج القلعة، وأسطح مباني الوزارات، التي سوف يسير بينها على الطرق المستقيمة ذهابًا وإيابًا، كما يرى نفسه بالفعل، في أزياء مختلفة. وفي بعض الأحيان، بين غرباء في الشارع، وبعد ساعات مضت في قاعة انتظار متربة، وهو يقوم بعمل مكتبي، أو خلال حديث عديم الأهمية، ستتملكه رغبة شريرة في الصراخ بأعلى صوته. سوف يعض على أسنانه، ويقبض يديه، ويقمع الانفعال، ويجفف بعد دقيقة العرق عن جبينه. بالكاد سيفكر في شاعرة اسمها «تيان»، وسيكون قد نسي اعتزامه أن يقرأها. عن موتها لن تصله إلا شائعة، ستمسه بصورة بعيدة وفريدة، إذ إنه، وهو مكبل في قيوده الخاصة، يحاول إخفاء انهيار جديد وراء عبارات مفجعة، شاكرًا بعمق وخنوع لنعمةٍ لا بد أن تدمره، معتذرًا عن حالة أمعائه المرضية باستمرار، والتي تهاجم حالته المزاجية، وتقلقله بأكثر الطرق غرابة في جميع الأعمال التي هو محظوظ بما فيه الكفاية لينجذب إليها. حتى إنه، لحزنه الشديد، غير قادر على القيام بتلك الأعمال بعد الآن. لن يعرف كلمات «جوندروده» التي تكتبها في الوقت نفسه إلى حبيبها: «مصيرنا حزين. أحسد الأنهار التي تتحد. الموت أفضل من العيش هكذا».

. الآن، يا «كلايست»، أخبرني عن مسرحيتك .

. أنتِ تعرفينها على ما أعتقد .

. لا تخبرني عن تلك. بل عن الأخرى، التي لا يعرفها أحد، حتى أنت نفسك .

هي الأولى، بعد «فيلاند»، التي تريد أن تتعرف إلى «جويسكارد»، الذي يسعى «كلايست» إلى نسيانه. تسأل لماذا يقاوم، لماذا يرفض تقديم معلومة بسيطة .

. أنتِ تطرحين أسئلة غريبة، يا «جوندروده »!

تقول إنها تعلمت أن تميز بين المشاعر الحقيقية والمزيفة، وألا تهتم بالزائفة، سواء لديها أو لدى الآخرين .

هل هي تصف سريته بالزائفة؟ يكاد «كلايست» أن يشعر بأن ذلك مسلٍ .

تصفها بغير الضرورية .

. لكن يستحيل عليَّ أن أتحدث عن أشياء معينة .

. سنرى ذلك .

تقول إنها لا تعتقد أنه اضطر من دون سبب إلى مقاطعة ذلك العمل الذي كان يعني له الكثير جدًّا. حتى لو وجدها جريئة، فإنها تتحرق لمعرفة السبب .

لقد تمنى لنفسه أن يتمادى أحدهم معه إلى هذا الحد. تقول «جوندروده» إنها لا يمكن أن تصدق أنها مسألة هزيمة بسيطة. وحدهم الأشخاص غير الموهوبين يستطيعون إنهاء كل الأشياء. بعض الاستسلام يشير فقط إلى عظمة المقاومة. هناك حالات يجب أن تفشل فيها خطة، على الرغم من أن لها ما يبررها .

يقول «كلايست »:

. أي حالات؟

. لا يوجد شكلٌ لما لا يمكن حله .

. أنتِ تدهشينني .

. لقد فكرتَ: «امرأة ».

. امتعاض؟

تقول :

.عزيزي «كلايست»، لطالما وُجدت مثل تلك الكلمة؛ يمنعوننا مبكرًا من أن نكون تعيسات بسبب معاناتنا المتخيَّلة. في سن السابعة عشرة يجب علينا أن نقبل مصيرنا، الذي هو الرجل، وأن ندرك عقوبتنا على حالة المعارضة غير المحتملة، ونتقبلها. كم مرة أردت أن أكون رجلًا، وتقت إلى الجراح الحقيقية التي تتسببون فيها لأنفسكم !

ـ ألا ترين كيف جُعل واجبُنا الذكوري للفعل غير قابلٍ للتحقق، بحيث لا يمكننا أن نتصرف إلا بشكل خاطئ أو لا نتصرف على الإطلاق؟! بينما يمكنكن الفعل، على الأقل في مجال الأفكار الذي خُصِّص لكُن .

. الأفكار، التي تظل بلا تبعات. وهكذا نشارك نحن أيضًا في تقسيم البشرية إلى «فاعلين» و«مفكرين». ألا نلاحظ كيف أن أفعال الذين يشدون الفعل ناحيتهم، تصبح دائمًا أقل خطرًا؟ وكيف أن شعر غير الفاعلين يتوافق أكثر فأكثر مع أهداف الفاعلين؟ ألا يجب علينا، نحن من لا نستطيع تحمل أي فعل عملي، أن نخشى من أن نتحول إلى الجنس الأنثوي من المنتحبين، غير قادرَين على تقديم أدنى تنازل تتطلبه أي أعمال يومية، ومصرَّين على مطلب لا يمكن لأحد على وجه الأرض الوفاء به: أن نصبح «فاعلَين» ونبقى في الوقت ذاته نحن أنفسنا؟

من يتحدث؟

يعرف «كلايست» الآن: سيذهب إلى بروسيا، ويتولى وظيفة، ويبذل قصارى جهده للقيام بمهامها. ويُظهر لتلك المرأة، مع من كانت تتعامل .

. ولكن فكري أيضًا، يا «جوندروده»: القليل جدًّا بالفعل، ما نصفه بالضروري، يجلب لنا هذه الأيام السمعة السيئة بأننا نريد كل شيء أو لا شيء. هذا ما وصلنا إليه. خطوة بخطوة نعود إلى

الوراء .

. قد يكون الأمر كذلك، لكنه ليس عذرًا لنا. قُلها بنفسك: هل تعيش من دون تأمين سري؟ من دون الأمل الخفي في أن من سيأتون بعدنا سيحتاجونك، حتى لو استطاع المعاصرون الاستغناء عنك؟ وفي الوقت نفسه تتعطش إلى المجد الحالي؟

. اصمتي .

يسترشد الرجل ببعض التركيبات الفكرية، وهو مُهيأ لإمكانية أن تنهار. أنه لن يحقق لا هذا الأمر ولا ذاك، أي سيفشل . أنه لن يترك أي أثر، وسيبقى شخصية هامشية. في يوم من الأيام، عندما ستصبح محاولاته الجاهدة، أن يجد لنفسه مُتكأ في المنظومات القائمة، عديمة الجدوى، عندما سيمشي بين الناس غريبًا، غير معترف به، مريضًا بسبب الإهانات التي تنتظره بلا شك، وغير مسموع الرأي في أهم الأشياء، عندها فقط سيكون له حق التصرف بمعاناته، وفي الوقت نفسه الحق في إنهائها. الشعور الذي لا يضاهى، عندما تنسد كل الطرق الأخرى .

. أنت تبتعدين، يا «جوندروده». إلى أين؟

. ألم تسمح لي بالصمت؟

يتوقفان، تستند إلى صفصافة. ينظران عبر النهر. الشمس تدور فوق الأفق قبل هبوطها مباشرة عند الجانب الآخر، داكنة الحمرة. يريانها تختفي في دقائق. والآن، فقط عدم وجوب التفكير أو الكلام .

. ما الذي كنا نتحدث عنه؟

. كنا نتحدث عن مسرحيتك. كنت تريد شرحها لي .

الشرح! الآن أصبح يريد ذلك .

يسمع نفسه يقول :

النورمان وقائد جيشهم، عليه أن يحارب الطاعون الذي يخطف رجاله ويسكن جسده أيضًا .

. وهو ينكر ذلك؟

. هو يخدع الجيش، الذي لا يستطيع قائدٌ مريض السيطرةَ عليه، ويتجاهل كل التحذيرات من أن يرعى بنفسه المصابين بالطاعون .

تقول «جوندروده »:

. تمامًا مثل «نابليون» أمام عكا .

هل ابتسمَت؟

يقول «كلايست »:

. هذا المسخ، الذي يعتقد أنه محصن ضد أي تحدٍّ .

. وهو لا يزال كذلك حتى اليوم، على عكس «جويسكارد» الخاص بك .

. «جوندروده»! «جويسكارد»، رجل عظيم، تحكمه إرادته !

. مثلما إرادة «نابليون» تحكمه .

ـ المهووس! الذي تفترسه شهوة السلطة. في حين أن «جويسكارد» يسيطر على نفسه لهدف أبعد من شخصه: تأسيس مملكة النورمان على الأراضي اليونانية .

. باسم أي حقوق؟

ـ ترشده نبوءة. يقف على أعتاب القسطنطينية غير قادر على التراجع. لقد راهن بكل ما لديه، وأحرق الجسور وراءه. ألا تفهمين ماذا يعني ذلك؟

لماذا هي صامتة؟

تريد أن تتعرف ما أمر النبوءة...»

. كنـت لأضَمِّنـها بـالفعل فـي المسـرحية. تنبـأوا لـ«جويسكارد» التاريخي . الذي مات على جزيرة كورفو . بأنه سيلقى حتفه في القدس؛ وفي وقت متأخر جدًّا، عرف أنه هنا، حيث يتوهم أنه بأمان، كانت توجد قديمًا مدينة اسمها «القدس». بقسوة شديدة ضللته النبوءة .

. إذن مات وهو يلعن الآلهة التي خدعته؟ أم لعن نفسه لأنه وثق بها بدلًا من أن يثق بنفسه؟ لأنه أخضع أهدافه الخاصة لكلامهم، وتصرف بتهور؟ وعظَّم من شأن نفسه؟ أو قلل منه؟

يقول «كلايست »:

. نعم هذا ما في الأمر. من عساه يعرف ذلك؟

ما استغرق هو سنوات لفهمه، تفهمه المرأة في دقائق: أنه أرهق نفسه بالعمل على أمر مستحيل. رجل، ملتزم بقوانين القدماء بقوة التزامه نفسها بقوانين العصر الحديث، يدين بأفوله لخيانة الآلهة بالقدر نفسه الذي يدين به لذاته: لم تخلق الكتابة المسرحية شكلًا بعد لمثل هذا البطل. ولكن قبل كل شيء، أصبح الآن يرى الأمر: الرغبة في الكشف عن أسوأ عدوٍّ له وعن ذاته في الوقت نفسه مشروعٌ لا يوجد له حل . المادة فظيعة، ولا عيب من الفشل عندها .

يريد التخلص من الجانب غير القابل للشفاء من طبيعته .

. أنا أقول الشعر فقط لأنني لا أستطيع تركه .

. يقدم «هولدرلين» للعالم، حتى لا يدمره الأخير، اقتراح تسوية ودية: إن الشاعر مجنون .

. ما هو عرضُكِ يا «جوندروده»؟ «أحبوني»؟

. وعرضُكَ؟ «دمروني»؟

.آه يا «جوندروده»! أن يتمكن المرء من أن يكون حقيقيًّا تمامًا مع نفسه .

. هذا لا يتوقف على قرارنا الحر .

. كثيرًا ما أفكر: ماذا لو لم تؤدِّ قَطُّ الحالة المثالية الأولى، التي استحضرتها الطبيعة واضطررنا إلى تدميرها، إلى تلك الحالة المثالية الثانية من خلال النظام الذي نفرضه على أنفسنا؟

. عندما نتوقف عن الأمل، يأتي بالتأكيد ما نخاف منه .

يسيران صامتَين. تشير «جوندروده» للغريب إلى لعبة الألوان في غرب السماء، باللونين الوردي الأحمر والأخضر التفاحي، اللذين لا يظهران في الطبيعة عدا ذلك . لا يزال الجو نهارًا، فقط الهواء قد أصبح أكثر برودة. تشد «جوندروده» الشال على صدرها. هي هادئة. في هذا الوقت من اليوم، غالبًا ما تتمنى أن تكون وحيدة، وأن يعتبرها الجميع ميتة، باستثناء ذلك الشخص الذي لا تعرفه بعد وعليها أن تخلقه لنفسها. هي تمزق نفسها إلى ثلاثة أشخاص، بينهم رجل. بإمكان الحب، إذا كان غير مشروط، أن يصهر معًا الأشخاص الثلاثة المنفصلين. ولكن الرجل الذي كان بجانبها لا يملك تلك الإمكانية. فإن عمله هو الشيء الوحيد الذي يجعله يتحد مع ذاته، ولا يمكنه أن يتخلى عنه من أجل أي إنسان. ولذلك فهو يعاني من وحدة مضاعفة، ومن فقدان مضاعف للحرية . لا يمكن أن تسير الأمور على ما يرام مع هذا الرجل، سواء كان عبقريًّا أو شخصًا تعيسًا بين كثيرين ممن يلفظهم الزمن .

يمر بخاطر «كلايست» اقتباس لا يريد أن يذكره لـ«جوندروده»: «لا تؤمن أي امرأة بقوتها الخاصة». يفكر: في تلك المرأة، يمكن لجنسها بالكامل أن يجد السبيل إلى الإيمان بنفسه. إن التبادل معها، هي التي لا تثير مشاعره كرجل، يشبه حالة نشوة حسية .

تقول، كما لو فكرت في الشيء نفسه :

. من خلال إدراكنا للحاضر يصبح بالفعل ماضيًا؛ الوعي بالمتعة يكمن دائمًا في الذاكرة .

يفكر «كلايست»: هل سأصبح أنا أيضًا، يومًا ما، جثة هامدة ترقد في أفكار الناس؟ هل هذا ما يسمونه الخلود؟

تفكر أنه بين الأزمان توجد أرض مظلمة، يضل فيها المرء بسهولة ويضيع على نحو غامض. هذا لا يخيفني. لقد أُخِذت الحياة بالفعل من بين أيدينا. لا يجب أن أكون دائمًا موجودة. أهكذا سأصبح مُحصنة؟

من دون سبب تبدأ في الضحك فجأة، بهدوء أولًا، ثم بصوت عالٍ وبملء حنجرتها. تصيب العدوى «كلايست». عليهما أن يمسكا كلٌّ بالآخر حتى لا يسقطا من شدة الضحك. لم يتقاربا قَطُّ أكثر من هذه اللحظة .

إذا كان على البشر أن يقضوا على نُسخ من جنسهم بسبب الشر أو الجهل، أو اللامبالاة أو الخوف، فإن قدرة مذهلة تؤول إلينا، نحن المُحتَّم علينا الهلاك: حرية أن نحب البشر وألا نكره أنفسنا .

أن نفهم أننا مسودة . ربما تُرفَض، وربما تُستكمل مرة أخرى. من اللائق بالإنسان أن يضحك على ذلك. مرسوم وهو يرسم. عائد إلى عمل يبقى مفتوحًا، مفتوحًا مثل جرح .

ما الذي ما زالا يتحدثان عنه؟ فيمَ يفكران؟

نحن نعرف أكثر مما ينبغي. سيعتبروننا عَجيبَين. إيماننا الراسخ بأن قدر الإنسان هو أن يُكمل نفسه، يتناقض تمامًا مع روح كل العصور. يفعل العالم ما هو أسهل له: إنه يصمت .

لقد تغير الضوء. جميع الأشياء، حتى الأشجار، أصبحت مدببة ومبهرة وحادة. يسمعان أصواتًا تأتي من بعيد، تنادي «كلايست». العربة إلى ماينتس يجب أن تغادر. تشير له «جوندروده» بالابتعاد. يتوادعان عن طريق إشارة باليد. الآن يحل الظلام. يُلقي النور آخر شعاع له على النهر .

يفكران: فقط مواصلة السير .

نحن نعرف ما سيأتي.

الكاتبة

تُعد الكاتبة والناقدة الأدبية كريستا فولف (1929-2011) من أهم أدباء ألمانيا. درست الأدب الألماني، وعملت في الخمسينيات في النشـر والصـحافة الأدبيـة. أصدرت أول أعمالـها، «نوفـيلا مـن موسكو » ، عام 1961، ونالت عنها «الجائزة الفنية لمدينة هاله». تفـرَّغت للكتابـة بـدءًا مـن عـام 1962. مـن أهم أعمالها: «السماء المقسـومة» (1963)، «التفكير فـي كريسـتا ت.» (1968)، «نحـن نعرف ما سيأتي» (1979)، «كاساندرا» (1983)، «ميديا» (1996).

حازت أعمالها جوائز مرموقة عديدة، من بينها: «جائزة هاينريش مان» (1963)، «الجائزة الأدبية لمدينة بريمن» (1978)، «جائزة جيورج بوشنر» (1980)، «جائزة شيلر التذكارية» (1983)، «جائزة الـدولة النمساوية لـلأدب الأوروبـي» (1985)، «جـائزة الأختـين شـول» (1987)، «الجائزة الألمانيـة للكتـاب» عـن مجموع أعمالها (2002)، «جائزة توماس مان» و«جائزة أوفه جونسون» (2010).

وكانت عضوة في أكاديمية الفنون في ألمانيا الشرقية، ثم في ألمانيا الغربية، والأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون، والأكاديمية الحرة للفنون في هامبورج .

المترجم

صـلاح هـلال أسـتاذ مسـاعد لـلأدب الألمـاني الحـديث فـي كليـة التربيـة جامعة عين شمس، ومترجم تحريري، ومترجم فوري، ومراجع حر. حاصل على الإجازة الدولية لتدريس اللغة الألمانية مـن معـهد «جوتـه» وجامعـة مـيونيخ. كمـا درس الأدب الألمـاني القديم والحديث، والنقد الأدبي، والترجمة، والعلوم الإسلامية في جامعة بون بألمانيا .

شارك في كثير من الندوات والمؤتمرات وورش العمل التي عُقدت فـي ألمـانيا وفـي مصر، في مجـالات الترجمة، وتـدريس اللغات الأجنبية، وحوار الثقافات، وحوار الأديان. كما شارك في عدد من

مشروعات تطوير المناهج وطرق تدريس الأدب والحضارة .

ترجم عددًا من الأعمال العلمية والأدبية، منها «رسائل إلى شاعر شاب» لـ«راينر ماريا ريلكه» الصادر عن دار الكرمة، وأعمال لـ«نافيد كرماني»، و«ماكس فيبر»، و «أرنو جايجر » ، و«هيلكه زوزينبووم»، و«يانا فراي»، و«جيني إربينبيك»، وغيرهم، كما ترجم كتب أطفال لـ«يوليا بومي». وهو بالإضافة إلى كل ذلك يكتب الشعر والزجل والقصة .

ترجمات الكرمة

1. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد .

2. سالباتييرًا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال .

3. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي .

4. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي .

5. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد . ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى .

6. الاعتداء - هاري موليش . ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد .

7. صباح ومساء - يون فوسه . ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش .

8. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي .

9. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية : أمين العيوطي .

10. الوعد - فريدريش دورنمات. ترجمها عن الألمانية : سمير